

المرأة في عصر الرينسانس

يقول بوركارت في فصل بهذا العنوان : « نظرة الارتفاع والسمو بعصر » الإحياء » ، تفرض اعتبار المرأة مساوية للرجل . ويرفض المؤرخ الفرنسي المعاصر « ديومو » هذا الادعاء قائلاً : « إن كان صبيان الطبقة الميسرة أخذوا طريقهم رويداً إلى المدرسة ، فالأغلب أن البنات لبثن بالبيت ، ولاشئ يبرهن أن المساواة بين الجنسين كانت قائمة ، ومدينة ألكالا « بأسبانيا » أول مدينة أوروبية بها مدرسة للإناث ، وهذا منذ مطلع القرن السادس عشر ولم يسدّ تعليم الإناث إلا في القرن السابع عشر ، وبفضل راهبات « الأورسولين » . ثم يناقض ديويو نفسه بقوله عقب هذا : « ومع ذلك ، فإن المتعلّيات في القرن السادس عشر تفوق عددهن عن أي عصر سابق » وعذره في هذا التناقض ربما كان لاعتباره أولئك المتعلّيات درسن في منازلهن !

ويقول جاكوب بوركارت : « ولا معنى للقبول بما يروق لبعض الباحثة من « النكش » على مقالات ومقولات يسخر الرجال فيها

بالجنس اللطيف . ونحن ألا نحمل كلام « الأريوسى » الشاعر محمل الجدل فى ادلائه إلى صاحب له بأنه « يعتبر المرأة طفلاً كبيراً ، يصعب التحكم فيه . ويجب على الرجل أن يعرف كيف يسلك فإن البون شامع بين المرأة والرجل » . ولاشك فى هذا ، إنما بوركاترت يتحدث عن « المساواة بين المرأة المثقفة ، على مستوى واحد مع الرجل ، ونسمى هذا ونعرفه بالاتحاد بين ذكائين ، وروحين ، عندما أصبح حقيقة بالزيجات الناجحة بأوروبا فيما بعده » .

كانت تربية الأنثى فى الطبقات العليا على مستوى تربية الرجل ، فلم يتردد إيطاليو الرينسانس فى إعطاء أبنائهم وبناتهم ذات الدراسات الأدبية بل اللغوية . ولقد عرفوا بنات من أسر الأمراء بَلَّغْنَ أرفع مدى فى إتقان اللغة اللاتينية . وكانت النساء يشاركن على الأقل فيما يطالب به الرجال من مؤلفات حتى يحى الحديث بين الرجل وقربته قيماً ومناسباً .. وعنيت النساء بالشعر ، وقرضه فيما يعرف « بالكاترونى » . « والصوته » والارتجال . والواضح أن شعرهن الغرامى مثلاً لم تظهر عليه خاصية نسائية ، بل كُنَّ فيه كالذكور . أى إنهن لا يخفين عاطفتين احتراماً للأنوثة ، حتى لاتكاد تصدق أنه قريض أنثوى ، إذا غاب عنك اسم الشاعر ، وتميزت المرأة الإيطالية عن غيرها من نساء أوروبا ، لأن هؤلاء الاخبرات لم يعرفن المساواة بالرجل إلا بعد قيام الإصلاح البروتستانتى .

ولقد بلغ من تربية المرأة فى عصر الرينسانس أن ظهرت من بينهن بطلات فى أكثر من درب فلا فرق فى هذا بين الذكر والأنثى ،

قريبة المرأة في ذلك العصر اتجهت إلى نوع من « الاسترجال » . يكفى أن تطالع في قصائد الشاعر « الاريوسى » صفات بطلاته ، ومن أمثلة هذا الاسترجال : كاترين سفورزا ، التى قامت بعد مقتل زوجها بالدفاع عن مدينة فورلى ، أولاً ضد حزب قتلته ، وفيما بعد ، ضد تشيزارى بورجيا . ولقد تغلب ذلك الوحش عليها ، ولكن شهرتها بقيت لامعة حتى أطلق عليها مواطنوها لقب « سيدة إيطاليا الأولى » ^(١) .

ولنعد إلى المؤرخ الفرنسى المعاصر « ديلومو » الذى ناقض بوركارى في حكاية المساواة بين الجنسين . فيها هو ذا يضرب الأمثال بينات مؤلف « الأطويا » توماس مور ، وشقيقات « هيومانى ورياضى » من نورمبرج . وكن من أشهر النساء العالمات في زمانهن ، ضليعات في اللاتينية ومطالعة الإغريقية ، ثم يعود إلى نساء الرينسانس العالمات في زمانهن « فتوريا كولونا » أميرة بسكارا ، كانت شاعرة فذة امتدحها ميكلائنجلو . ثم يقول : وهناك شهادة بأن

(١) وعندما اخترت ثلاث ملكات من التاريخ المصرى ، تدارست طبايعهن وأعطيت قصب السبق للصعيدية « حاتشبوت » لا انتقاصاً من « أم خليل » - (شجرة الدر) وما صنعت بعد وفاة زوجها السلطان ، من إخفاء موته ، وتقليد توقيعه لاستمرار مواقع الدفاع ضد الصليبيين . ولا من « بنت الزمار » - (كليوباترا الكبرى) . كل ما في الأمر أني لاحظت في سلوك هاتين الملكتين العظيمتين ناحية من نواحي الضعف الأنثوى : غيرة شجرة الدر من زواج بعلمها عليها ، وتدبير قتل . وسلوك كليوباترا في غرامياتها ، حتى وهى شابة يافعة ، وقد أودى بها ، وبمشيقتها مارك أنطونيوس حيال انتصار الإمبراطور عليهما في المعركة البحرية المشهورة .

النخبة النسائية نفذت إلى الثقافة ، قال عنهن واحد من رجال القانون في القرن الخامس عشر : « لم أكن أتصور ، حتى تحققت ، من أن نساء فلورنسا على علم بفلسفة الأخلاق ، والطبيعة والمنطق والبلاغة » . وأول صالون أدي افتتح في باريس كان في منتصف القرن السادس عشر وفي بيت نبيل من بلاط الملكة كاترين دي مديشي . وكان هذا النبيل قد عاش في إيطاليا وتراسل مع إيراسم الفيلسوف . إنما زوجته هي صاحبة ذلك الصالون الشهير . وكانت حسناء ذكية مثقفة ، هي وبناتها : كامى ، ولو كريسبا ، وديان . وكن موضوع قصائد الشعراء .

وطيحي أن أولئك النساء يَهْمَنَ بالفن . فلإزابلا ديسيه كانت حامية المصور « مانتيا » وقربت ليونارد دافنشى ، وتبادلت الرسائل مع أهم مصورى العصر : بيروجينو وبلينى ولورنزودا كوستا ، وكوريجيو ، وتسيانو . كما دعت ديان ده بواتيه إلى قصرها بفرنسا بنقشوتو تشلينى . وما من شك فى أن التطور الفلورنسى ، المتنقل إلى كافة أوروبا ، كان للنساء فيه أدوار هامة .

ولقد آن التحدث عن كتاب مشهور ، منذ عصر الرينسانس إلى اليوم عن آداب المجتمع وفضل وجود النساء كعنصر أساسى لرهط متحضر . ألا وهو كتاب « رجل البلاط » (الكورتيجيانو) تأليف بالتساوى كاستليونى . ويمكن وصفه اختصاراً بأنه مرقى « أولاد الناس » ، وأعنى بهذا المصطلح المملوكى ، أبناء الطبقات الممتازة بالسلطان أو بالثراء أو بالفكر والعلوم الصادرة عنها . والفنون التى

تنطلق من أعماق الشعور : مؤسسة على فكرة مستتيرة فهو كتاب تربوى أبعد مايكون عن المدرسية ، وإن أخذ في بعض فصوله شكل الحوار ، وحديثه يتناول قواعد الأدب الاجتماعى ، واللباقة ، والقبافة . مؤلفه دبلوماسى من مواليد مانتوا ، تلمس في بلاط إمارة أورينو ، وكانت هذه الإمارة سامية المقام في حركة الاحياء بفضل أميرها الدوق فديريكوردا مونيفلترو نصير الهيومانزم ، وحامى رجال العلم . والمدينة مسقط رأس رافائيل والمعارى برامانتى . وقد أدرك كاستليونى قيمة هذا الوسط العالى ، فألف كتابه للطبقة المرفهة التى تميزها هذا البلاط . وبذلك كان يمثل حصافة الأرستقراطية ، وكان أثر كتابه واضحاً على نبلاء إيطاليا وخارج إيطاليا ، في التعريف بالقيم الجديدة للحضارة : التعليم والتربية والإقبال على الفنون والآداب ، والامعان في احترام المرأة . وقد صدر لكتابه ١٦ طبعة إيطالية (ما بين عام ١٥٢٨ و١٥٨٧) وست طبعات من الترجمة الفرنسية (ما بين ١٥٣٧ و١٥٩٢) وترجم إلى الإنجليزية سنة ١٥٦٢ ، ونشر في عصر الملكة اليزابيث الأولى : وما برح الكتاب معروفاً ومقروءاً إلى اليوم .

كان كاستليونى من أتباع الأفلاطونية الجديدة ، وكان جندياً شجاعاً ، وفناناً صديقاً لرافائيل في روما ، وعلى اتصال بالدوائر الهيومانية التى تحيط بالبابا ليون العاشر . وعندما توفيت عقيلته سنة ١٥٢٠ ، تحول إلى الرهبنة ، وأوفده البابا إلى أسبانيا ، « قاصداً رسولياً » وتوفى في طليطلة عام ١٥٢٩ ، أى بعد عامين من إصدار كتابه (ولد كاستليونى في مانتوا عام ١٤٧٨) .

كانت الأفلاطونية الجديدة تنادى بحق الجمال والحب . فهي الأصل في وضع المرأة موضع التبجيل في حضارة الغرب . وإن كان الفضل الأسبق للفيلسوف فثسينو ، ويتضح ذلك من تعليقاته على «مأدبه أفلاطون» ثم على «فيدرا» . ومذهب الحب في تعليقاته يعرفه بأنه «لب الترقق (أو التعلق) بالجمال» . وقال كذلك : «نحن لانرى الروح ، فلا نستطيع أن نشهد جمالها إلا ممثلاً بجسدها . فالجسد صورة أو ظل للروح ، والحسن شعاعة من الخالق ، ينبوع أبدى للجمال» .

وقال كاستليونى ، وهو تلميذ فثسينو : «الجمال في الجسد وأكثر منه في سيماء البشر . وبهذا يتمثل التوق والرغبة التى نَصِفُها بالحب . والحب هو فضل الخالق سبحانه ، وكأنه ضوء الشمس منعكسا حيث تقع أشعتها ، فتضىء لطفه وروعته . والطيبة صنو الإيناس ، كما هى قرينة «الجمال» ومن الواضح أن الأفلاطونية الجديدة فى عصر الإحياء قد نقلت الفكرة الأفلاطونية الأصلية إلى المرأة .

• • •

تدين الإيطاليات لعصر الإحياء بالكثير .. فقد كان العصر الوسيط قاسياً على بنات حواء ، فهو العصر الذى لم يغفر للمرأة خطيئتها الأولى فى جنة الفردوس ، ورأى فيها العدو الأول للرجل . وصفها اسكولاى - فى القرن الثالث عشر - بأن عقليتها وقيمتها الأخلاقية لاتتميز عن الأطفال : فخرها وعزتها فى الخضوع لإرادة

الرجل ، وأكثر من هذا أن تلتزم الصمت ، قال دانتى وهو العليم بالنساء عِشْرَة ، وإنصائًا لحديثين : « إنهن كثيرات الكلام فى براءة .. ثم أخذ يتحدث بعضهن إلى البعض ، كالطر المنهر مختلطا بالجليد ناصع البياض . ولهذا خُيل إلى أن حديثهن يختلط بالتهديدات .. » امتدح دانتى فيهن فضائل العقلانية علماً وحكمة ، كياسه ولطفاً فلا عجب ودانتى مجد بياتريس كما أن بترارك تغنى فى شعره بمعشوقته الفقيدة لاورا .

أما بوكاتشيو فى « الديكامرون » فيقول « بأنهن من غير جنس الملائكة ، يحشين الموت بالطاعون المنتشر . اجتمعن فى ركن من الكنيسة ، فى ذلك العام الأسود الطالع ، حديثهن لايزيد على أنهن يطلبن الحياة . ووفد على الكنيسة رهط من شباب الطبقة الممتازة ، لا ليؤدوا صلاة ، بل بحثا عن صديقاتهم . واتفق مجموعهم على التزوج عن فلورنسا احتماً بالريف ، فى انتظار توقف الوباء الوارد » .

وتحولت فلورنسا فيما بعد من مدينة حصينة بقلاعها ، وضيق مساكنها ، إلى مدينة القصور الفسيحة ، كما انتشرت الفيلات فى رياض المدينة ، تحيط بها رياض غناء .

لم تك فلورنسا وحدها فى هذا التحول ، وإن كان لها فضل السبق على مدن الشمال والوسط الايطالى فى أحياء هذه الحضارة التى لم يحلم بها أهل القرون السالفة منذ تفكك الإمبراطورية الرومانية .

پیکودیلا میراندولا

ترددت فی اختیار واحد من أهل الفكر والفلسفة فی عصر الإحياء ، وأمعنت النظر فی ثلاثة أسماء من تنطبق علیهم صفة الهیومانية . والثلاثة الذین وضعتم علی رأس الهیومانية هم مارسیلیو فتشينو ، وپیکودیلا میراندولا ، ونقولا دی کویس . وقضى الأمر باختيار لیکو منذ أن نقلت وصفا له بقلم شاعر من أصدقائه ، عدلت فیہ بما لا ینبئ عنه بالذات . وبدأت تأیبن لأخی وصدیق العظیم الدكتور محمد کامل حسین بقراءة ترجمتی المعدلة ، وواصلت تأیبن محمد کامل حسین بعد أن كشفت عن مصدر ترجمتی ، وهو وصف هیومانی عظیم من ذلك العصر الباهر .

إن اشتهار فكرة « الرجل العالمی » لوصو أنیقرسالی .. يعود الفضل فیها إلى لیوناردو دافنشی ، أما الرجل الذی ساهم فی نشرها فهو مؤلف کاستلیونی کتاب « رجل البلاط » .

كان پیکو واحداً من الهیومانیین القلائل الذین کادوا یقعون تحت أیدی محكمة التفتیش بنهمة الهرطقة . فی حین أن أغلبية الهیومانیین

تقبلوا الدجاطية الكنسية ، توقيًا من هذه المحكمة (الإنكليزيون) .

كان بيكو خصمًا للفلكيين المنجمين يقول بأن أصحاب النجوم هؤلاء يؤمنون بقوة الأفلاك ، لأن الكواكب تحمل أسماء آلهة وثنية ، وكانوا يعتبرون في العصور القديمة أن تلك الأوثان تتحكم في حياة البشر . وكان تنديده بهم نتيجة تسجيله في أجندته للوقائع التي يتنبأ بها المنجمون . فأنتهى إلى أنها لم تصدق إلا سبع مرات ، وخابت في أربعين ومائة مرة ، وقال : « إذا كان التنجيم علمًا فلماذا لا يشعرنا باتفاقهم : لقد اعتمد هؤلاء على جداول لحركة الكواكب ، ولكن هذه الجداول كانت معروفة من القدم بأنها مغلوطة » .

ومناقشة بيكو هذا الموضوع لم تعتمد على مجرد ملحوظات ومشاهدات . فإن مفتاح حجته وبرهانه كان قائمًا على « أن الله أعطى الإنسان القدرة على اختيار طريقه ، وقضائه وقدره . فكيف تكون هذه الكواكب - وهي مجرد أحجار صخرية بمسميات وثنية - هي القادرة على التأثير في عطية الله للإنسان » . كان موقفه من التنجيم ثابتًا ، بخلاف فثسينو شريكه الأكبر ، فإنه لم يرفض تمامًا فكرة تأثير الكواكب في حياة الإنسان . ومع ذلك فقد أشار إلى أخطاء هؤلاء المنجمين .

أما « دى كويس » فهو من الهيومانيين الجرمان العظام ، وقد امتاز هو والهيومانى الأسبانى يوحنا سيجوثيا برفض فكرة الصليبيين في محاربة المسلمين ، والبحث عن نقاط توصل إلى اتفاق مع المسلمين .

وفكرا فى عقد مؤتمر ، وطالع كل منها القرآن على أساس أن وعى
مافيه هو أهم الخطوات فى سبيل جمع هذا المؤتمر المسيحى -
الإسلامى .

قال دى كويس إن الجهل يورث الخطل ، والشر . وأخذ يبحث
فى ديانة المسلمين ، حتى بلغ حقيقة الإنجيل فى القرآن . ويعنى بهذا
إيضاح ماوراء المناهضة والاختلاف ، مادام القرآن والإنجيل قائمين
على قاعدة مشتركة . ولكن أول ما صدمه فى هذا البحث هو رفض
القرآن لألوهية المسيح وصلبه ، وقيامته . فيكون معنى هذا رفض
القرآن لطبيعة المسيح ، أى رفض عقيدة المسحيين . واضح عند
المسلمين بأن المسيح ابن سيدتنا مريم ، وأنه من روح الله . ولكنه
إنسان كبقية البشر ، ونبي من أنبياء الله . والمسلمون يعترفون بنبوة غير
قليل من أنبياء « الكتاب المقدس » فى العهد القديم ، ومن أهمهم ،
بعد موسى وإبراهيم ، عيسى بن مريم البتول .

وكان مراسله الأسبانى يوحنا سيجوڤيا قد أتم قبل وفاته عام
١٤٥٨ ترجمة القرآن . ثم حدث عقب ذلك سقوط القسطنطينية
بجيوش السلطان العثمانى محمد الفاتح . وزاد ذلك من هم دى
كويس ، وكان متفقاً مع القس الأسبانى على ألا سبيل إلى الاجتماع
بالمسلمين قبل فحص نص القرآن وفهمه الصحيح . وأهم من ذلك
أن دى كويس ، بوحي إنسانيته وهيومانيته يرى أن من يبحث عن
اتفاق مع عدو يجب ألا يغض من مميزاته .

وقررت أكاديمية فلورنسا (التي أنشأها كوزيمودى مديتشي أميرها) بحث الوصول إلى « توليفة » فلسفية تحقق التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية ، على أن يتم ذلك متفقا مع كافة التجارب الدينية .

ولكن مارسيلي فنشينو (١٤٣٣ - ١٤٩٩) ، وتلميذه بيكو ديلا مير اندولا (١٤٦٣ - ١٤٩٤) ذهبا إلى أبعد من دى كويس حين قال هذا الأخير : « الكتب المقدسة ، والفلسفات تؤكد أمرا واحدا بطريقتين مختلفتين وأضاف قائلا بأن « الإيمان بالخالق جلّ وعلا ، أمر طبيعي في الإنسان ، كالصهيل للخيول ، وأنه عندما يتكلم عن الدين يعنى غريزة طبيعية جامعة لواقع واحد ، وهو أن ابن آدم يدرك ويعبد عناية ربانية هي صاحبة الوجود » . وحاول فنشينو أن يستخرج دينا علمانية من الأفلاطونية قديما وجديدا ، ومن المسيحية وكان ذكاء بيكو ديلا ميراند ولا يدفعه إلى النظر في المنابع الإغريقية ، والعبرانية والمسيحية والإسلامية وبذلك « نكون قد جمعنا بين كل الفلاسفة دون الاستثناء بواحد منهم ، بحثا عن التوافق الروحي والكوفي الذي نصل به إلى حقيقة صوفية كونية ، لعلها لها بزمان بعينه » .

الكونت چوفاني بيكوديلا ميراند ولا ابن أمير مدينة ميراند ولا في الشمال الإيطالي ، قرب فيرادا . درس في جامعة بادوا ، وكان أستاذه إلياس ديل مديجو يهوديا ، تلقى عليه دروسه في اللغات العبرية والعربية . وكشف الأستاذ له عن أسرار الباطنية الإسرائيلية وهي

المعروفة بالقبالانية . ثم نرحبكو إلى باريس حيث عاش شتاء واحدًا (١٤٨٢ - ١٤٨٣) ، ومنها ذهب إلى فلورنسا (١٤٨٤) يدرس على فيتشينو الذى وجهه إلى دراسة أفلوطين وكتابات دنيس الأدبوياجى . ثم توجه إلى پروجيا والتقى هناك بمختصص فى «القبالانية» . وفى العام ذاته وصل إلى روما وأعلن فى جامعها أن «القبالانية» جزء مما أوحى به إلى إسرائيل ، ورفض الجحيم عقاباً أبدياً للمذنبين الخاطئين ، لأن حياتهم محسوبة بنهايتها . وهاجم عبادة الأوثان . وأثار كل هذا عليه غضبا شاملا ، اضطره إلى الاختفاء والهرب إلى باريس ومنها عاد إلى إيطاليا . حيث وجد الحماية فى بلاط أمير فلورنسا لورنزو الأفخم . وكانت فلورنسا معروفة بأنها موطن الأفلاطونية الجديدة ، وبتشجيع صديقه العلامة فتشينو ختم كتابه الكبير وعنوانه « سبعة ظواهر الخلق » . وفى عام ١٤٩١ ركز دراسته فى تفسير « العهد القديم » وأظن القارئ يعرف أن هذا الجزء القديم من الكتاب المقدس « مكتوب أصلا باللغة العبرية » . وأود التنبية إلى أن البروتستانت - وخاصة جرمان الشمال - يعنون عناية كبيرة « بالعهد القديم » . ولقد قابلت سويسريًا من آباء المعبد البروتستانتى فى جينيف ، وعرفت منه هذه الحقيقة ، وأن دراستهم الدينية تفرض عليهم إجادة اللغة العبرية ، ولعل القارئ يعرف أن « التوراة » جزء من « العهد القديم » وتشتمل عند الإسرائيليين على خمسة أسفار تبدأ بسفر « التكوين » وتنتهى بسفر « التثنية » فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض مواب حسب قول الرب .. ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم .

وانتهى من دراسته « للعهد القديم » بالاستماع والمتابعة لنشاط
سافونارولا في إصلاح الكنيسة والاكليروس . وتحول فيما تبقى له من
عمر قصير إلى التقشف والزهد . وتوزيع ممتلكاته على أعمال الخير .

وتوفى في ١٧ نوفمبر ١٤٩٤ في عامه الأول بعد الثلاثين . في ذات
اليوم الذي اقتحم الملك شارل الفرنسي غازيا إيطاليا ، بدخول
فلورنسا .

وقد يتعجب القارئ من أستاذية اسرايلى بجامعة « إيطالية »
مرجع هذا أن كانت في ذلك العصر جاليات يهودية هامة تعيش في
فرنكفورت ، وبراج ، وروما ، وطيطة ، ومن باب أولى في
فلورنسا ، والهيومايون اهتموا بالدراسات العبرانية ، مثل عنايتهم
بالإغريقية ، وكما سبق القول كان الغرض من التبحر في اللغتين -
بالإضافة إلى الناحية الحضارية - هو الاتصال المباشر بالكتاب
المقدس في لغتيه الأصليتين : العبرية « للعهد القديم » ، واليونانية
« للعهد الجديد » . وإيطاليا الهيومانية هي التي قدحت من الثقافة
العبرانية إشعاعاً عالمياً ، وقد صارت مكتبة الفاتيكان في حكم البابا
نقولا الخامس أغنى المكتبات في المخطوطات « الإنكونابل » (وهي
المخطوطات التي لا يوجد منها في العالم سوى نسخة واحدة) .

وفي عام ١٩٨١ كانت فرصة لي أن أزور مكتبة « ديرسان جال »
بمدينة سان جال في سويسرة ، وأطلع على ثرائها فيما يخص
الدراسات الدينية ، ومارأيته معروضا من مخطوطات .

« وانكونابلات » للكتاب المقدس . وعجيب أن أخرج من دار كتب
بإمتاع يقرب من متعة زيارة متاحف الصور والمائيل الشهيرة .

وانتهى فتشينو إلى وظيفة كنسية ، كما انتهى بيكو ، باتباع
الراهب سافونارولا ، المصلح الأول للكاتوليكية والمنتهى بالإعدام
مشنقاً ثم حرقاً . وختم بيكو حياته بالتجرد عن ممتلكاته ، وقد بلغ
الواحد والثلاثين من عمره .

لماذا تميزت فلورنسا وإيطاليا بميلاد الرينسانس ؟

وَصَفُّ أَسَاسِي جَدِيرٌ بِالتَّسَاوُلِ : أَنْ يَبْدَأَ عَصْرُ الْإِحْيَاءِ فِي إِيطَالِيَا
وَتَكُونُ فُلُورَنْسَا هِيَ السَّبَاقَةَ فِي الْمَضَارِ . وَإِلَيْكَ الْإِجَابَةُ :

هَذَا التَّحْرُكُ الْحَضَارِيُّ الْعَجِيبُ ، مُصْدِرُ التَّطَوُّرِ فِي أَوْرَبَا ،
شَمَلَ الْأَدَابَ وَالْفَنُّونَ بَلِ الْفِكْرَ بِعَامَةٍ ، سِيَاسِيًّا أَوْ اجْتِمَاعِيًّا أَوْ عِلْمِيًّا
أَوْ دِينِيًّا . وَإِنْ كَانَ الْأَدَبُ سَبَاقًا ، فَإِنَّ التَّصْوِيرَ وَالتَّحْتَ وَالْعِمَارَةَ
فَازَتْ بِقِيَادَةٍ لَمْ تَقِفْ عِنْدَ الْمَحَلِّيَةِ فِي إِيطَالِيَا ، بَلِ انْتَقَلَتْ إِلَى الْجُمُوعَةِ
الْأَوْرَبِيَّةِ كُلِّهَا ، وَبِسُرْعَةٍ لَهَا مَعْنَاهَا فِي تَقْدِمِ الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِي وَمَا
وَاصِلٍ مِنْ خَطَوَاتٍ وَتَطَوُّرَاتٍ حَضَارَةٍ فَازَ بِهَا الْمُجْتَمَعُ الْأَوْرَبِيُّ بِمَرْكَزِهِ
الْعَالَمِيِّ إِلَى الْيَوْمِ .

وَاجِبُنَا أَنْ نَتَابِعَ ذَلِكَ التَّحْرُكَ خُطْوَةً خُطْوَةً فِي مِيدَانِ الثَّقَافَةِ
وَمُصَادِرِهَا - وَأَوَّلُهَا الْمُصْدِرُ الْحَيُّ لِكُلِّ حَضَارَةٍ : أَلَا وَهُوَ « الْفِكْرُ
الْحُرُّ » لِلْفَرْدِ ، وَالْمُجْتَمَعِ .

طَلَبُ الْبَابَا أَوْرِينُوسِ الرَّابِعِ (١٢٠٠ - ١٢٦٤) مِنْ تُوْمَاسِ

الإكويني ترجمة وتعليقاً على أعمال أرسطو. وكان هذا البابا ميالا في اجتماعاته ، وعلى مائدته ، إلى رجال الفكر ، ولم ينجح سان توماس ولا تلاميذه بنقل روح الإسكولائية إلى إيطاليا . فالإيطاليون بطبيعتهم لا ينحون إلى المنطق لذاته . ولا يعنيه من الفلسفة إلا أن تقوم على أساس علماني ، مما يعود بالخير على الإنسان لإسعاده . لانهمهم « الميتافيزيقا » ، وإنما الأخلاقيات (إلا طيقا) . وهذا هو دانتى يؤكد أولوية العقلانية ، بشرط أن يكون « حراً » والحرية تحكمه .

معنى هذا أن الفكر الإيطالي يختار النواحي العملية من أفلاطون وأرسطو وزينون وسنيكا وهذه النواحي ضابطها القانون الروماني . ففي القرن الرابع عشر كان هذا القانون يؤلف أساس التربية للبرالية .

ومعنى ذلك أيضاً أن الفكر الإيطالي ظل حريصاً على حرية الفكر حتى في المسائل الدينية ، مع احترام روح الديانة في العلاقة بين العبد وربه . وقد يرى من يعنون بهذا الموضوع أن يراجعوا سيرة سان فرنسيس الأسيزي ، مؤسس الرهبنة الفرنسيسكانية . فهو يمثل الضمير الديني في صميم الإنسان الإيطالي . وكان نجاحه في بلاده عظيماً حتى وصف هذا النجاح وكأنه أقام كنيسة داخل الكنيسة اللاتينية الرومانية ، أساسها الروح والحب . وأضيف هنا دراسة جذيرة بالاطلاع في هذا الموضوع لايرنست ريتان في « مجلة العالمين » (ريفيوده دوموند) عدد ٥ يولييه ١٨٦٦ . عما يوصف « بالإنجيل الأبدى » ، المنسوب إلى راهب سيتوكي « بواقيم ده فلور » . والنسبة للدير المشهور في بلده سبتوه بفرنسا . ومن رهبانه المشاهير سان برنار .

وسيدرك القارئ أن هذه التحركات داخل الكتلة بعثت في حياة الإيطاليين الإيمان الديني مؤسسا على حب الحرية .

ولعل هذه الحقيقة توضح للقارئ معنى التحرر من ضيق « العصر الوسط ، الذي صححته الطبيعة الإيطالية في فلورنسا ، عاصمة توسكانيا ، وانتقل إلى غيرها من أمارات الوسط والشمال . وواقع الأمر أن روح الإنسان بثقلها ويشقيها الكبت ، والضغط على الحياة الخاصة ، بله حياة المجتمع . فالكبت ، أو الضغط يضعف الشخصية ، والإرادة ، ونشاط الروح .

وأيسر الظواهر التي تفسر السبق الإيطالي في إحياء الحضارة الكلاسيكية هي أن الإيطاليين عاشوا على مقربة ، بل مع آثار الرومان . وأن مدينة روما أنشأها الرومان . وقد احتفظت الرئاسة الكنسية بوجودها في عاصمة الإمبراطورية . وربما قال قائل بأن آثار الرومان قائمة في كل البلاد التي غزتها ، وفتحها جيوشهم ، من الشمال البريطاني إلى أقصى الجنوب في شمال أفريقيا ، ومن أقصى الشرق ، إلى شاطئ الأطلنطي غربا .

ولو أننا حصرنا كل الباقي من تلك الآثار في الأصقاع المختلفة ، فإن إيطاليا ، وخاصة الوسطى ، وفي الشمال تحتوى على أضعاف كل ما يوجد في البلاد الأخرى .

والواقع أن الإيطاليين قبل حركة الإحياء كانوا يحسون ويقدررون أهمية العالم القديم ، بل هم اتجهوا إلى ما وراء الرومان ، أى إلى البلد

الذى أورث روما أسس حضارتها ، وأعنى اليونان . ولم يجئ عصر الإحياء من فراغ بل اكتمل وعيه بالعالم القديم . وعندنا مثل واحد سبق لنا التحدث بشأنه فى هذه الصفحات ، وهو الشاعر بترارك ، وكان أول الهيومانيين الذين أدركوا وقدروا ما أورثهم التاريخ من آثار أجدادهم . وحياة بترارك سابقة على عصر الرينسانس .

يُحَقِّقُ لنا إذن أن نستنتج بأن هذا الخط الكامل الذى لم ينقطع . هو الذى فجر حضارة « الإحياء » فى إيطاليا قبل أى بلد أوروبى آخر . وعندنا الدلائل على ذلك التوصل فى أن الكنيسة الكاثوليكية استقرت على اللغة اللاتينية ، مثل استقرارها فى روما . فقد كانت البابوية تعتبر نفسها وريثة إمبراطورية الرومان . وظل القانون الرومانى قائما ، وتم هذا فى عهد « القوط » الذين قضوا على الإمبراطورية .

روما هى الرابطة بين الحاضر المسيحى ، والماضى الغابر ، وهى عند الكاثوليك عاصمة العالم . منذ أن غدت مصدر السلطان عند أباطرة الجرمان ، وملوك الفرنجة ، يحجون إليها ليتوجوا بيد بابا روما .

وبحسن ألا ننسى أثر إمبراطورية بيزنطة فى حركة الرينسانس ولم يكن مجرد بعد عن إيطاليا ، بل كانت دائما ذات أطماع ، وماهى الدول الأوربية التى لم تكن لها أطماع فى البلاد الساحرة ؟ : أسبانيا وفرنسا وألمانيا . فحتى القرن العاشر كان البيزنطيون أسبادا مباشرين على أرض مدينة بارى ، وغيرها فى جنوب إيطاليا . وكان لهم مقام مرموق لدى جمهورية البندقية ، وعند أهل نابولى ، وساليرنو ،

وأمانى ، وكل زائر لفنيسيا ، علم بشئ من تاريخ الفنون ، يلاحظ
فى أبنيتها الهامة شبيهاً بأسلوب بيزنطة .

فكنيسة سان مارك هى أثر بيزنطى عظيم (القرن ١١) على أن
فنيسيا كانت بحكم موضعها ، واستقرارها فوق جزائرها ومياهاها ،
تعتبر فى معزل خاص . إنما الأثر البيزنطى يظهر بأروع بيان فى آثار
مدينة رافنا على الشاطئ الشرقى لإيطاليا . لقد زرتها فى فترتين من
حياتى . الأولى لم أفهم أصل آثارها البيزنطية . وفى الفترة الثانية كنت
بدأت أتبين طريق فى ظلام تاريخ لم أقرأه ، ولم أمارس دراسته ،
إنما كنت قد زرت اسطنبول ، ودخلت أيا صوفيا . وكان أتاتورك قد
أشار بإعادتها إلى أصلها البيزنطى ، وإزالة الجص من حيطان كانت
مغطاة بفريكات بيزنطية ، رأيت واحداً منها فى زيارتى . والذى
يضع لهذا الفن توقيعه العالى هو : التصوير بالفسياء يكفى أن
تشاهد كنيستى قيثالى وسان چوفانى فى رافنا لتحس بأصالة بيزنطيتها .
وهذه من آثار الإمبراطور چوستيان ، ومسترى صورته ، وصورة
الإمبراطورة عقلية تيودورا بموكبها على جدران سان قيثالى ، كل
ذلك بطوب الفسياء ذى اللون السماوى الجميل .

ويبقى لنا فى قيام عصر الإحياء ذكر للفن والفكر الإسلامى .
كان أثره عاماً ، دون خصوصية البيزنطى . ومن الناحية التاريخية كان
العرب قد استولوا (من القرن التاسع حتى الحادى عشر) على
صقلية . وإذا كان النورمان قد أزاحوهم فإنهم استبقوا العلم العربى .
والطب العربى . والفن والشعر . وكان الإمبراطور فريديرك الجرمانى

من أسرة الهوهشتا وفن (تلك الشخصية العجيبة المتأثرة بالإسلام إلى حد كبير) هو الذى حافظ على التراث الإسلامى فى الجنوب الإيطالى . كان المسيحيون الغربيون يكرهون هذا التدخل الإسلامى ، ولكنهم يحترمون حضارة الإسلام ، ومحمدون أهلها ، مع نظرة إعجاب بإكراه لروعة هذا الفن ، وانفساح حضارته ، وخاصة الناحية التى شرفت عقلية العرب أصحاب الأندلس ، لمعرفةهم بأسرار أرسطو ، وأرسطو عند الغربيين فى ذلك الزمان كان يمثل فيلسوفاً انكشفت له آثار الألوهية . وهذه المعرفة الإسلامية لم يضع دانتي فى جحيمه ابن رشد ، بل وضعه فى المنطقة المسألة بين الحكماء : هوراس وأفلاطون .

ومع أن صقلية العربية هذه لم تُجار مسلمى الأندلس فى روعة أدبهم وعلومهم ، فقد كان لها مدارسها فى الطب ، والفلك والرياضيات ، والتشريع ، وفى التفسير ، وفى متصوفهم ولغويهم ، والمؤرخين والجغرافيين والشعراء .

وبمجيئ النورمان وإلى صقلية أعاد هؤلاء المنطقة إلى العصر الوسيط ولكنهم أبقوا على المسلمين فى أخطاطهم بمدينة باليرمو ، كما ثبت كل ذلك فى كتاب عرى من ذلك العصر ، منازلهم وأحيائهم ومساجدهم وقاضيتهم وحماماتهم وأسواقهم . كما لم يخلُ بلاط النورمان من العلماء والجغرافيين والمؤرخين المسلمين ، وكلنا فيما أظن نعرف كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » للإدريسى ومازال كتابه

يحمل إهداءه إلى الملك النورماندى روجيه ويعرف الكتاب إلى اليوم
« بالروچارى » .

وفى ختام القرن الثانى عشر كان الملك النورماندى الشاب غليوم
الطبيب يقول للمسلمين فى بلاطه : « فليعبد كل منا الرب الذى
يحب . لأن من يؤمن بربه يحقق السلام لفؤاده » ولبست نساء باليرمو
من الإفرنج والإيطاليين ملابس المسلمات . كما ألف الملك من العرب
ضمن الجيش النورماندى فرقة من المسلمين الفرسان حملة القوس .
وفتح الملك جيوم بلاطه للمسلمين الأطباء والمنجمين والشعراء
والرحالة - راجع الشاعر والقاضى ابن قلافس السكندرى . وابن
ظافر الأديب الفحل . وشهد الرحالة ابن جبير من بلنسية لباليرمو بأنها
تتقبل المقارنة بمدينة قرطبة .

إيبوليت تين عن الرينسانس

لم أوفق إلى ما كتبه المؤرخ والفيلسوف الاجتماعى تين الفرنسى عن عصر الإحياء ، وأكتفى مؤقتاً بنقل ما كتبه فى مؤلفه المشهور « تاريخ الأدب الإنجليزى » عن انتقال الرينسانس إلى إنجلترا . وهو تقديم طويل عن عصر هنرى الثامن والملكة « اليزابث » . اخترت منه ما يتعلق بالعصر الفلورنسى .

« ... وبدأت الاكتشافات ، وتحركت الصناعة ، والعلوم ، والفنون فى طريق التجديد اكتشفت قارة جديدة ظنها مكتشفها الأول ساحل الصين . وعرفت أوروبا الطريق البحرى بالطواف حول الطرف الجنوبى لإفريقيا حيث رأس الرجاء الصالح (وأفضل ترجمة الاسم « برأس الأمانة الطيبة ») ومنها واصلوا المسير إلى الشمال الشرقى حتى بلغوا الهند .

وبدأت العلوم التجريبية تنمو كالنبت الصالح . كما انجبه الإصلاح إلى الدين ، ولم تبق ناحية فى الذكاء لم يُنصَحْها الجهد العام ، وتحرك الإنسان وكأن عيون البشر تفتحت فجأة للرؤية

والمشاهدة ، فتنتقل منهم روح جديدة تشرئب إلى العلا . لم يقف الإنسان عند فحص الأشياء فرادى (بالقطاعى) حسب ترتيبها الاسكولاى ، بل اتجه إلى النظرة الشاملة ، وبلغ ما وراء الظاهر لفحص محتوياته ولس أجزائه ، حتى يخرج منها بصورة حية قد يستطيع أن يترجمها بإنجاز فنى أو بعمل منتج ، أجل ، كان القرن الخامس عشر يقدم العصر العظيم إلى أوروبا ، وقد أنصب البشر ، العصر الذى ماقتنا نجيا ونعاون بعصارته فى إثارة جهده وانطلاقه . وعندما تظهر قدرات البشر بهذا الوضوح فإن إحياء نموذج العالم القديم (يونان وروما) يحمل معه عشق الجمال ، ظهر ذلك فى أول أمره بإيطاليا ، فهى أقرب البلاد صلة بالعصر الكلاسيكى ، وانتقل منها إلى فرنسا فأسبانيا ، فالبلاد الواطئة ، فالمانيا وإنجلترا ، كيف حدث هذا ؟ وماهى الثورة التى دارت فى النفوس حتى يجتمع أهل كل تلك البلاد على شئون جديدة ، غابت عنهم منذ انهيار إمبراطورية روما ؟ لابد أن يكون قد حدث تحسن عام شعر به الناس . فالنموذج المثالى هو المعبر عن المقف الحقيقى . والشخصيات التى يستحضرها خيال الكاتب ، مثل كل تصورات المفكر ، تقدم بيانات عن حالة المجتمع ، ودرجة فلاحه ورفاهيته . وهناك توافق وتطابق ثابت بين ما يعجب الإنسان ، وبين الشخص ذاته .

فحوالى ختام القرن الخامس عشر تمرك المجتمع الأوربى ، وراجت صناعة الصوف وتجارته فيما يشبه الفجائية ، حتى بلغ الأمر فى إنجلترا أن حولت أراضي الغلال إلى مروج ومراع للماشية ذات الصوف .

وإذا تمنعنا في حقيقة الأمر نجد أن الملوك في أوروبا جنحوا فجأة إلى السلام : لويس الحادى عشر في فرنسا ، وفرديناند وايزابلا في أسبانيا ، وهنرى الثامن في إنجلترا ، أما إيطاليا فقد انتهى فيها عصر الإقطاع مبكرًا ، وقامت فيها الجمهوريات والإمارات ، وعندما يستتب السلام تظهر الفنون والصناعات ، وهناء البيوت وأهلها يتبع الأمن المدنى ، ورب البيت الذى يطمئن إلى حوائج أسرته ، ويشعر بالحماية التى تحوط بلده ، يستقر السكون فى نفسه ، ويحن إلى أرضه ، ويسعد بإصلاحها . وهذا هنرى الثامن يأمر برصف طرقات لوندرة (١٥٣٣) . وقد كانت القذارة والقمامة والحفر ، والوحل والمياه الآسنة تجعل من الطرقات أذى وعذابًا .

ولقرن سابق على ممالك أوروبا بدأ الإيطاليون الاهتمام بالآثار القديمة متأثرين بكتابات بلوتارك ويوكاتشيو . وراحوا يبحثون فى فرنسا وألمانيا وبيزنطة عن مخطوطات قدماء اليونان والرومان يدرسونها ويترجمونها ، ويعلقون عليها ، والأقرب إلى فهمهم هو اللاتينية لغة كثرتهم ، وهى ذات لغتهم مُحَوَّرَةٌ تحويرًا بسيطًا . وأخذوا يتأثرون فرجيل فى شعره ، وسيسرون فى نثره . ونشروا على المجتمع مايوصف بحسن المحاضرة ، وإمتاع الروح بكل ماينعمون به ، من رياض غناء فيحاء ، وموسيقى تشرح النفوس . وكان شاعرهم وأميرهم لورنزودى مدينتشى فى أشعاره الرعوية يبحث على أفراس الدنيا ، « فلا شىء مؤكدًا فى غده » .

ميشليه عن الرينسانس

أعجبت بتفسير المؤرخ الفرنسى الكبير چول ميشليه لمصطلح «الرينسانس» قال : «عودة إلى الحياة» ، مدخل فى باب المعجزات ، إذا قصد بها المخلوق الحى . وتنبه ميشليه إلى ما يحدث فى الطبيعة ، فقال : «رينسانس» تعنى عودة إلى الحياة فى الطبيعة : اقتراب الإنسان من الطبيعة ، والمسيحية من الوثنية فى العصر الكلاسيك (يونان وروما) ، وأوروبا من آسيا . ومنذ زمن مديد ، عودة أوروبا إلى الطبيعة ، لافى التاريخ ولا فى السياسة فحسب ، بل فى العلم (سيانس) .

١ - دراسة مباشرة للطبيعة (فى الكيمياء الأولية وهى «الأكمى» .

٢ - بالدراسات اللغوية والفلسفية للوثنية : عبادة الطبيعة (نسخ المخطوطات الوثنية) .

٣ - التقريب بين الطبيعة وبين الأمم - وبين الفن والزمان - وبين الطبيعة والزمان ، والفن .

وأرجو ألا يتوقع القارئ منى بعد هذه الترجمة الحرفية ،
لتعاريف المؤرخ الكبير ، أن أباشر ترجمة ما قدم به فصوله عن
الرينسانس . لأن وضع ميشليه ، وتاريخ حياته وسط صراعه ضد
قوى الظلام فى النزاع الأخير بين الرجعية والتقدمية ، دفعه إلى
مهاجمة العصر الوسيط بلا هوادة . ولكن المؤرخين ، وخاصة فى
زماننا ، متفقون على أن استنكار ذلك العصر ، خروج عن التحقيق
السليم . فقد كان للعصر الوسيط إنجازات فكرية وفلسفية ذات قيمة
فى ذاتها ، وإنجازات معمارية فى طرازين عظيمين للفن : الطراز
« الرومانسكى » (ستيل رومان) والطراز « القوطى » (ستيل
جوتيك) . ولكليهما آثار من أعلام فن العمارة . نعم إن ميشليه يتجه
نحو الناحية الصحيحة فى الشطر الأول من ذلك العصر ، ولكنه
ينتهى بتسفيه نهاياته .

وليتصور القارئ أنه بعد هذا التقديم ، يبدأ فصله الأول بهذا
العنوان : « فرنسا فى حكم شارل الثامن تحتاج إيطاليا » ، وله
عذره ، فإن مجلدات تاريخه - وهى من أجمد الثقافة الفرنسية ،
وميشليه من أئمة المؤرخين - خاصة بتاريخ فرنسا من مطالعها حتى
العصر الحديث . فأنا مكثف بترجمة ملخص لكلامه عن الرينسانس
وحده . « لطف كلمة الرينسانس فى أن أصدقاء الجاليات
لا يذكرون من ذلك العصر إلا بلوغ فنه المجدد فى حرية رائعة . أما
العلامة فىرى فيه استجداد الدراسات الخاصة بمحضارقى اليونان
والرومان . » ورجل القانون يرى نفاذ الضياء إلى داخل خلطة من

عادتنا وتقاليدنا العتيقة » .

ثم يتفق في الاعتراف بعصر « الإحياء » : الشخص المحب للفن ، ورجل الإيمان ، ورجل الشك . وتساؤل مونتي : « ماذا أعرف ؟ » (Que Gais-je) هو كل مارآه پاسكال ، ويوسيوه . الجهد الهائل إذن في ثورة مركبة ، منسعة الأرجاء ، جمّة النشاط ، انتهى إلى العدم . إرادة عظيمة تنتهى إلى غير نتيجة . من شأنه تثييط لهمة الفكر الإنسانى .

فهؤلاء السادة ، أهل المعرفة ، نوا أمرين صغيرين شكلا ، إنما اختص بهما ذلك العصر من دون كل العصور السالفة ، وهما : اكتشاف الدنيا ، واكتشاف الإنسان .

فالقرن السادس عشر بامتداده ، واتساعه ، يتضمن : كولومبوس ، وكوبرنيكوس ، وجاليليو ، أى من اكتشاف الأرض إلى اكتشاف السماء . لم يكتشف الدنيا فحسب ، بل اكتشف الإنسان . وبينما كان قيزاليوس يكشف له عن الحياة ، وكالفان ، ومارتن لوتر ، وكوجاس ، ورابليه ، ومونتي ، وشكسبير ، وثرافاثس ينفذون إلى أسرار الأخلاقية ، بدأ استقرار الإنسان على العدالة والحكمة .

يقول : ماذا نرى من علم فى العصر الوسيط ؟ لم يكن إلا علم العرب ومعاونهم اليهود ..

« ولنقل شيئًا تحدثنا عنه بما لا يكفي ، وهو أن الثورة الفرنسية ذاتها ، وجدت الصيغ المعدة ، جاهزة بأقلام الفلاسفة » .

« وكان القرن السادس عشر كله إرادة ، والأحفاد في القرن التاسع عشر أخذوا عنه قوى التجمع ، وعرفوا النبع الثر الذي يخضل فيه الجنس البشرى لتقوية الروح . أى نعم !

لقد كان القرن السادس عشر بطلا » ، ودمتم !

كشاف مختصر عن بعض شخصيات (الرينسانس)

الأريتينو (بيترو) :

أحدُ لسان في القرن السادس عشر. وُلد في أريزو (١٤٩٢) ،
وننى من جراء قلمه الساخر اللاذع . غادر مسقط رأسه إلى روما ،
ودخل في حامية البابا ليون العاشر. ولكن نشره لأشعاره البذيئة
اضطرته إلى التماس الحماية في بلاط فلورنسا ، وأميرها يوحنا
المديشى . وعقب وفاة الأمير هاجر إلى فينسيا ، وفيها ألف ملهاتين
مفلوتتى العيار في الإباحية ، ولا يمكن إنكار موهبته القلمية ، وبها
وبتهديدها عاش هائلاً وناقداً حصيفاً لفن التصوير ، وكان صديقاً
لعظيم مصورى البندقية تسيانو ، توفى الأريتينو سنة ١٥٥٦ .

أرسطو :

كان عصر الرينسانس أفلاطونى النزعات ، وليس معنى هذا أن
هيومانيي فلورنسا تجاهلوا أرسطو ، فقد نشرت سنة ١٤٩٢ في
البندقية أهم طبعة لأعمال أرسطو - ولكن التفسير الأرسطى عند
ناشريه اتكأ على المسيحية .

الأكاديمية :

مولدها في عصر « الإحياء » وفي إيطاليا : اجتماع شخصيات بينها علاقات صداقة ، وكذلك اتفاق في إهتمام أعضائها بمسائل فكرية . . . وقد تعددت في ذلك العصر المتفتح بإيطاليا ، وفي البلاد الأوربية التي وصل تأثير « الرينسانس » إليها بهذا التابع فرنسا ، أسبانيا ، البلاد الواطئة ، إنجلترا ، ألمانيا .

أول الأكاديميات وأهمها وأشهرها هي أكاديمية فلورنسا برئاسة مارسيليو فتشينو ، في أواخر القرن الخامس عشر (الكواترو تشينتيو عند الإيطاليين) ، حددت هذه الأكاديمية هدفًا موضوعيًا هو إنشاء تركيب فلسفي يوفق بين المسيحية والأفلاطونية . ويجمع إلى هذا كافة التجارب الدينية . مارسيليو فتشينو (١٤٣٣ - ١٤٩٩) وتلميذه بيكودبلا ميراندولا (١٤٦٣ - ١٤٩٤) ذهبا إلى أبعد من نقولادي كريس القائل بأن « الكعب المقدسة ، والفلسفات أكدت أمرًا واحدًا بتعبيرات مختلفة » ، وعرضا مسائل من زاوية جديدة نتيجة اقتناعها بأن التجربة الدينية هي جزء من التركيب الإنساني للإله مشترك في كل الأديان ، وطبيعة في الإنسان كالقوس يصهل . ومن أقوال فتشينو : « عندما أتحدث عن الدين ، أعني الغريزة المشتركة ، وهي طبيعية في أن يجمع الإنسان على وجود عناية إلهية ، هي صاحبة الملك » .

ونحت تأثير بيكو ديبلا ميراندولا على أستاذه في توجيهه إلى الأصول الإغريقية ، والعبرانية والعربية ، يقول : « نستعرض كل

أساتذة الفلسفة ، دون أن تأخذ بمذهب واحد منهم ، بحثًا عن توافق روحي هام تختصر فيه الفلسفات إلى حقيقة نفسية (صوفية) ، وهذا واضح الاستحالة ولا يتعدى رأيًا يقول به مفكر عبقري .

البيرني (ليوني باتستا) :

أفلاطوني بارز (توفي ١٤٧٢) وصاحب فلسفة في فن العمارة ، وفي تنظيم المدن ، وكان إلى هذا موسيقيًا عَلامَة ، ومصورًا ، ونحاتًا ، والعمارة أهم نشاط له . لقد طالع وتعمق دراسة كتاب المعاري الروماني (فثروفيو) ثم وضع مؤلفه المشهور في العمارة (طبع بعد وفاته بقليل) . وهو مصمم واجهة كنيسة سانتا ماريا نوڤيلا ، وقصر روتشلاي بفلورنسا .

إسكندر السادس :

تولى البابوية عام ١٤٩٢ عقب وفاة البابا إنوتشنتي الثامن . وُلد في أسبانيا عام ١٤٣٦ ، وتوفي في روما عام ١٥١٣ ، بعد حياة فاسقة ، وأخلف عددًا كبيرًا من الأطفال أشهرهم تشيزاري بورجيا ، وشقيقته لوكريسيا بورجيا ، وهو البابا الذي شلح المصلح الديني ساقونارولا ، وسلمه لمحكمة التفتيش (انكيزييون) .

الأسلحة :

تطورت قدرات الأسلحة باستخدام البارود ، وصب المدافع ،

وصناعة « القراينات » (بنادق قديمة) . وتطورت أبنية الدفاع
باستحكامات الحصون .

الاسترولوجيا :

(علم النجوم الأسطوري - والتنجيم ممارسته) :
كان الاهتمام بالنجوم والكواكب في عصر « الإحياء » ، فكانت
الأفلاك سواقة للبشر ، تؤثر في حياتهم بالخير والشر . وكأنها مخلوقات
حية ذات شعور وإدراك . ولكل آدمي في حساب النجوم صورة من
حياته حسب إتفاق ميلاده مع حركة واحد منها . وما فتئت كلمة
« المتنجّم » تعمل إلى اليوم في بلادنا هذه الصلة المتصلة . وهي
ما تعرف « بالطالع » . وهذا غير « الاستخارة » التي يقوم بها حفظة
القرآن الموهوبون يقرءون الطالع في الآيات .

إيراسموس (زبديريوس) :

وُلد في روتردام حوالى عام ١٤٦٩ . علامة هيوماني ، تتلمذ على
« الفريز » مدى خمس سنوات ، ترهبين عام ١٤٨٨ ، وخلصه البابا
چول الثاني من الرهبنة ، ورسمه كاهنًا ، وعينه سكرتيرًا لأسقف
كامبراي ، ثم سمح له بمتابعة دراسته في جامعة باريس . زار إنجلترا
لأول مرة عام ١٤٩٩ ، حيث التقى بتوماس مور ، وجون كويليت .
والسنوات ١٥٠٠ - ١٥٠٦ قضاهما في باريس ، ثم في البلاد
الواطنة ، فالعودة إلى إنجلترا . ومؤلفة عن « الأمثال والحكم » صدر
عام ١٥٠٠ . أمّا كتابه عن « الفارس المتدين » فقد صدر في

١٥٠٤ ، ومن ١٥٠٦ حتى ١٥٠٩ عاش بإيطاليا في البندقية وروما ، ودرّس اللغة الإغريقية ، وأعاد طبع أمثاله وحكمه ، وقد ارتفع بعددها من ٥٨٠ في الطبعة الأولى إلى ٤٢٥١ في الطبعة الثانية . وغادر إيطاليا إلى إنجلترا : وفي الطريق ألف كتابه الأشهر (مديح الجنون) = (تقرّظ غياب العقل) أتم كتابته في منزل توماس مور . وظهر عام ١٥١١ . عاش أكثر أوقاته في إنجلترا فيما بين ١٥٠٩ و ١٥١٤ ، ودرس بعض الوقت اللغة اليونانية ، واللاهوت بجامعة كامبردج . ويعود إلى القارة عام ١٥١٤ ، وقد تم الصلح بين فرنسا وإنجلترا فأنجه إلى « بازل » (بسويسرا) حيث تعرف على ناشره الجديد (فردين) ، ثم عاش أغلب السنوات من ١٥١٦ حتى ١٥٢١ في موطنه (البلاد الواطئة) ، وعين مستشاراً للملك أسبانيا شارل الأول (مستقبلاً : الإمبراطور شارلكان ، أى شارل الخامس) ، وقد بدأ عصر الحروب بين الكاثوليك والبروتستانت ، فيطلب منه مارتن لوتر أن يظل على الحياد . ويغادر بازل إلى فرايبورج (سويسرا) ، المدينة الكاثوليكية ، حيث يؤلف « السلام في الكنيسة » ، ويعود إلى بازل ١٥٣٥ ، ويتلقى من البابا بولس الثالث عرضاً بتعيينه كاردينالاً ، فيعذر ويموت ليلة ١١ - ١٢ يولية ١٥٣٦ بعد أن وزع عطاياه على أسرة فردين ، وعلى الفقراء والمرضى .

أورينو :

بفضل أميرها فيديريكو دا مونتيفلترو تحولت مدينة أورينو إلى

مكان مرموق في تاريخ الريسانس ، إذ كان الأمير واسع الثقافة ، صديقاً وسناداً للهيومانيين والعلميين . وله صورة بريشة بيتروديلأ فرانثيسكا ، والمدينة مسقط رأس رفائيل فخر للفن والمصورين طراً . وبرامنتي المعمارى الكبير ، أهم آثارها قصر الأمير ، عملت في بناءه كوكبة من المعماريين المشاهير في إيطاليا . ومن الخارج ، ويعتبر من أجمل أبنية العصر (هو الآن متحف للتصوير والنحت) ، واشتهرت المدينة بفن الخزف ذى المصادر الشرقية (الفايانس والسيراميك) .

البنوك :

في أوائل القرن الخامس عشر ، وخاصة في فلورنسا ، كانت البنوك متنوعة : بعضها بنوك تسليف بضمانات ، وبفوائد ترتفع إلى ٢٠ ٪ . مما دعا رهبنة الفرنسيسكان إلى إنشاء ما يعرف باسم (مون ده بيتيه) « أكمة الرحمة والصلاح » بما سَمَّيناه « القرض الحسن » . وبنوك تسليف بضمانة مقصورة على الجواهر والحلى . ولها صلة بالتجارة . تباع الحلى على أقساط . وبنوك لاستبدال العملة . ومن الواضح أن كل هذه مؤسسات صغيرة ، والأشهر والأهم هى المؤسسات المصرفية الضخمة وأشهرها في فلورنسا : بنك أسرة المديتشى ، وبنك أسرة الپاردى ، وكان لهذه البنوك مراسلون في أهم مراكز التجارة والموانى . وهى الأصل فيما هو معروف اليوم في كل مكان .

بوكاتشيو (جوفاني) :

عن « لاروس الصغير » ، طبعة ١٩٨٢ : كاتب إيطالي ، وُلد في فلورنسا أوفى تشيرتالدو؟ (١٣١٣ - ١٣٧٥) ، مؤلف قصائد غزلية من خرافات اليونان أوزمزية أوبسيكولوجية .

وهو مؤلف « الديكاميرون » مجموعة قصص كتبها فيما بين (١٣٤٩ - ١٣٥٣) وهي تصور عادات وأخلاق القرن الرابع عشر ، وأسلوبها كان له فضل تثبيت النثر الإيطالي .

وإليك ماجاء في كتاب المؤرخ المعاصر ديلومو ، الذي أنقل عنه هذه العروض (طبعة ١٩٧٣) : ولد في باريس (كذا) ١٣١٣ لأب فلورنسي من رجال البنوك . ولأم فرنسية (كذا) . عاش طول حياته في فلورنسا ، انتقل منها إلى نابولي ليتقرب من الملك الفرنسي الغازي لإيطاليا . عشق بوكاتشيوانة هذا الملك ، وخلدها في رواية قصيرة (نوفيل) باسم Fiammetta فَيَامَتَا ، ثم عاد إلى الاستقرار في بلده فلورنسا ، ألف أشهر كتبه « الديكاميرون » ، وهو مجموعة قصص قصيرة كتبها باللغة الإيطالية ، فهو ، ودانتي وبتراش كانوا أبطال تحويل العامية اللاتينية إلى لغة من أهم لغات العالم بفضل مبتدعيها العظام . وحكايات « الديكاميرون » مليئة بالسخرية والغراميات المكشوفة . وما فتئ هذا الكتاب يُقرأ في كل بلاد الحضارة ، بلغاتها . وكتبَ مؤلفات جادة باللاتينية لا تقوم لها قائمة الآن . وألاحظ « أنا » أن اللغات العامية كافة ، تبسط للغة

الأصلية ، وكنا في شباب « المدرسة الحديثة » ندافع بقوة عن اللغة العامية . ولم يحسن منا بلاغة العامية سوى واحد هو المرحوم ، الكاتب القصصي الأصيل ، محمود طاهر لاشين . ولكنه أنف من أن يكتب بها سطرًا واحدًا . فأضاع فرصة العمر ، لو كان استسلم للغة الكلام في مصر ، وكان فيها بطلا مجليًا . « وبلاغة العامية » مصطلح عجيب لا يفهمه إلا المتمرسون بأدب التونسي وأدب الزجالين في كل عصر من التاريخ المصري - العربي .

البورصة

مصدر الاسم : لقب أسرة من مدينة بروج (بلجيكا) واللقب كان « دير بورتسي » ، ومسكن هؤلاء البورتسي في بروج كان مقامًا في ميدان يؤمه التجار الأجانب ، والإيطاليون بخاصة ، وعندما افتتح بعض الإيطاليين مكتبًا تجرى فيه العمليات المعروفة أطلقوا عليه اسم « البورصة » .

البوصلة :

اكتشفها أو اخترعها الصينيون ، ونقلها الملاحون العرب إلى أوروبا ، ومنها إلى بقية العالم وقد طورها الملاحون الإيطاليون العظام .

برامانتي (دوناتود المجلو) :

أعظم المعارين في عصر الرينسانس إلى جانب ميكلائجلو . وُلد في أورينو (١٤٤٤) وتوفي ١٥١٤ . حقق الروائع المشهورة في

روما ، وفي لومبارديا . اجتذبه أميرها لودوفيكو المغربي (المورو) ، وقصد روما عام ١٤٩٩ ، وأصبح معماري البابا چول الثاني الذي أضاف قصر البلفيدير إلى القاتيكان . بدأ برامانتي في بناء كنيسة سان پيترو الجديدة ، عام ١٥٠٦ ولتتمكن من إقامتها حسب تصميمه ، كان عليه أن يتخلص من كنيسة قسطنطين ، أول معتنق للمسيحية من الأباطرة ، فلم يتردد في هدمها لينشئ البناء الشائق الملاحق لقصر القاتيكان : كنيسة هائلة في أسلوبها الكلاسيكي الصريح في هندامه المنبسط الأنيق ، وفي قُبَّتِهِ ، أجمل قباب روما ، وقد درس بدقة تصميمه لها في قبة البانتيون الذي بناه الإمبراطور أجريميا .

برونليكي (فيليو)

ولد في فلورنسا ١٣٧٧ ، ودرس العمارة الكلاسيكية في روما ، ويعتبر أكبر معماري فلورنسا . وهو باق « بيت المعمودية » (البابستير) . من روائع فلورنسا ، وأقام « الدوم » الكنيسة الكبرى : « سانتا ماريا ديل فيوري » ، وهي البناء الذي يتعرف عليه السائح وسط المدينة ، بقبتها البيضاوية وهي من القباب المعدودة في العالم المسيحي . وهو باق قصر « پيتي » الذي يعرض نخبة نادرة من التصوير الرينسانسي . توفي ١٤٤٦ .

برونو (چوردانو) :

ولد في (الكامپانيا) ١٥٤٨ ، وجاء إلى نابولي ١٥٦٢ وترهب في دير الدمنيكان ورسم كاهنًا في ١٥٧٢ ، ثم حصل على الدكتوراه

في اللاهوت ١٥٧٥ . وعندما اتهم بالهرطقة تحلل من الكهانة وهرب إلى خارج إيطاليا . وعاش متفلاً بين منطقة الساقوا وچنيف ١٥٧٩ ، حيث توافق مع البرونسانت أتباع كلّفن . وحدث خلاف اضطره إلى مغادرة چنيف إلى تولوز ، ثم إلى باريس (١٥٨١ - ١٥٨٣) ، ثم لوندرة ، وقيتانبرج ، بألمانيا ، حيث اشتغل بتدريس الفلسفة (١٥٨٦ - ١٥٨٨) . وبعد إقامات في براج وفرانكفورت عاد إلى إيطاليا ، وانتهى إلى البندقية حيث قبض عليه من محكمة التفتيش ونُقل إلى روما حيث أعيدت محاكمته واستغرقت سنوات انتهت بحكم الإعدام ، فأُحرق حيّاً عام ١٦٠٠ . ألف أكثر من خمسين كتاباً ورسالة ، وثلاث قصائد فلسفية . رفض رفضاً باتاً التبرئة بنعمة الرب ، فإيمانه كان بالمسكنات اللانهائية للإنسان . كان أول العقلانيين في التاريخ الحديث . ولكن آراءه أخرجته من المسيحية . أُحرق في روما بتهمة عدة ، ربما كان أشدها إنكاره الرؤيا والوحي ، ومذهب الخطيئة الأولى للإنسان الأول ، وألوهية المسيح .

پلاديو (أندريا دى پيتر) :

وُلد في بادوا ١٥٠٨ ، وتوفي في فيشتر ١٥٨٠ . كان دارساً وناشراً لمجلدات المعارى الرومانى الكبير قُتروقيو ، وغدا من أعظم من أقاموا أبنية دينية ودينية ، وبعد وفاة رجال العارة الكبار . وآثار پلاديو باقية في بعض المدن الإيطالية وخاصة فيشتر وڤنيسيا .

جوتنبرج (يوهانس جنسفلایش) :

« مطبعجي » ألماني ، ولد في ماينس (ما بين ١٣٩٤ أو ٩٩ - وتوفي ١٤٦٨) بدأ « جواهرجيًا » ، ثم صانع مرايا . استقر في ستراسبورج ١٤٣٤ ، وانتهى في عام ١٤٤٠ من تحقيق اختراعه في السر . وأصالته في أنه صب الحروف منفصلة (تيوجرافيا) ، وكان الصينيون قد تصوروها منذ القرن الحادى عشر . وقد استغرق عمله حتى اكتمل في صورته النهائية نحو عشر سنين (١٤٣٨ - ١٤٤٨) ، تكلف أموالا لجأ فيها إلى المدعو يوحنا فوست من ماينس منذ عام ١٤٥٠ . وقد طبع الكتاب المقدس المعروف « بالكتاب ذى الاثنين والأربعين سطرًا » ويبدو أنه كان أول كتاب طبع بالطريقة المستعملة إلى اليوم .

ورفع يوحنا فوست عليه قضية يطالب بفوائد ديونه التى تأخر جوتنبرج في سدادها . وخسر المخترع القضية ، وفقد أدواته ومطبوعاته . وأخذ أحد معاونيه مكانه . وهو المدعو بطرس شيفر . وطبع أول نسخة للزمائر تعرف « بزمائر ماينس » . وعاش المخترع العظيم في محنة ، حتى أنقذه وعنى بأمره وشرفه رئيس أساقفة ماينس « إدولف فون نساو » .

جيبى (لورنزو) :

شهرته الكبرى في الباب البرونزى لمعمودية فلورنسا « الباتيسير » ،

وقد ملأه بتصاوير وقائع وشخصيات « العهد القديم » فى تربيعات
تملاً الصلّفتين ، وكانت من نوع النحت البارز (باريليف) ولد عام
١٣٧٨ وتوفى ١٤٥٥ . ولقد عمل جيورنى فى « سانتا ماريا ديل
فيورى » وفى « أورسان ميكيلى » ، وأحواض المعمودية بمدينة سينا .

دورير (ألبريخت) :

من مواليد نورمبرج عام ١٤٧١ وتوفى ١٥٣٨ . عمل فى كولمار
بحرم شونجاور ثم فى ستراسبورج ومنها إلى إيطاليا حيث تعرف على
الموضوعات المتصلة بالعصر الكلاسيكى ، وتأثر بصورة النساء
العاريات فى فن مانتينيا وبولابولو ، ويعتبر أول فنان جرمانى درس
الفن الإيطالى فى صدق . « فنه جهد صامت ، وعزيمة جادة فى
تحقيق وضوح الشكل ، وتوافقه مع مصورى الجنوب » . وصفه إلمى
فور : « فنان علامة متفتح الانتباه لكل شىء . فيه من العصر
الوسطى : الإيمان والرمزية ذات الثراء فى تحقيقها ، وأخذ عن
الرينسانس القلق والقدرة على بيان المناظر اللانهائية ، التى تظهر
للعقول فى تخفيها . والإرادة التى لا تهدأ لتحقيق المعرفة . كان رساماً
أهم منه مصوراً . أترى فن الحفر بموضوعات ذات معاني عميقة
(المجموعة العظيمة بمتحف الألبرتينا ، فى فيينا) ولكن هذا لا يغمطه
حق قدراته فى التصوير بالزيت ، فهو مقتدر فى الفئتين . ولم يك فن
الحفر - بهذا المستوى - معروفاً قبل عصر الرينسانس . بدأ حفره
بأدنى ذى بدء فى الخشب ، ثم تحول إلى نقش النحاس ، ذلك الفن
المتطلب صبراً ونمھلاً ، وكان « دورير » من أوائل القائمين به ، أظهر

فيه أروع إنجازاته . وكان إلى كل ذلك مهندساً حربياً ، ألف كتاباً في
التحصينات ، وأتم كتابه عن النسب في الجسم الإنساني ، عام وفاته
١٥٢٨ » .

هرمس « مثلث العظمة » (Trismagiste)

منذ أن تعرف هيودوت على أن « توت » (أو « طت ») إله
المصريين القدامى ، هو هرمس الإغريقي ، وهو يزعم أن كهنة مصر
يحتفظون بأسرار ربهم وبقداسه . ولكن أفلاطون في « فيدرا » وفي
« فيلاب » يتحدث عن « توت » أو « طت » مخترع حروف الهجاء
والكتابة .

وعنى السكندريون في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد بأفلاطون
من جديد ، ويحثوا عن وسائل تحقيق ما سموه بالكتب « الهرمية » ،
وأنها حاوية لمذاهب أو أفكار متفقة مع أفكارهم ، مثلما فعل
الفيثاغوريون : عزوا مؤلفاتهم هم إلى فيثاغورث أو إلى تلاميذه
المباشرين .

الهيومانية :

كلمة « هيومانيتاس » عند سبيرون وكانطيان تعنى الثقافة
الروحية أو تنقيف الروح وآداب الطباع . فإذا أخذنا بالأعم يكون
المعنى هو الحضارة .

وعندما تنبه مثقفو الإيطاليين منذ پترارك إلى عظماء الكتاب

والشعراء في العصر القديم كانت تحذوهم الرغبة إلى استعادة القيم الثقافية التي كانت موضع تقدير أولئك الكتاب والشعراء . ولكن هذه الاستعادة تتطلب البحث عن المخطوطات وتنقيتها من الأخطاء ، مع التصويب اللغوي ، وكذا دراسة اللغات القديمة الضائعة كاليونانية والعبرية . وبعض الهيومانيين كانوا على الأغلب فصحاء ، تعينهم قواعد النحو . ولكن حقائق الجدد ، المطالبين بما عند القدماء تتطلب تنظيمًا بين أفكار القدماء وأفكار هؤلاء المحدثين ، بمعنى البحث عن توافق بين الإنجيل والتوراة ، وبين حكمة أفلاطون بعد العثور عليه ، وبلاغة سيسيرون . والتوفيق بين صرامة التنفس المسيحي ، وأبيقورية القدماء أوروأقيتهم . والجهد في هذا التركيب المزوج يمثل عصر الرينسانس : من لورنزو فاللا الإيطالي إلى ميشيل ده مونتيي الفرنسي ، وكان الهيومانزم الإيطالي أكثر وثنية من غير الإيطاليين . ولكنه انتهى بمارسيلى فتشينو ، وتوماس موروا براسم إلى محاولة غير كاملة النجاح بالدمغ والتكامل بين المسيحية وعشق الحياة الدنيا والجمال ، وهي التي تتمثل - إلى أقصاها - في ثقافة اليونان والرومان .

الحديد :

اتسع دور الحديد في إيّان عصر الرينسانس ، وارتفعت أفرانه لصنع الحديد الزهر ، حيث استعمل كثيرًا في صب المدافع .

الطوائف :

جماعات صُنّاع يدويين أو تجار ، كل منها مختص بحرفة تجرى في مكان مقرر . وتتألف الجماعة من « أسطوات » ورفقاء وصبية ، وكلهم مُتَّفِقُونَ على اتباع قواعد الطائفة في احترام سلطات « الأسطوات » ، أو الحكام ، وقد ازداد عدد هذه الطوائف في عصر الرينسانس ، اشتد فيها النظام الاقتصادي ، ونمت فيها حياة الصناعة ، ولكنها فقدت سيطرتها السياسية ، وأصبحت واحدة من وسائل الحكم المطلق ، وكانت النتيجة إيقاف التقدم الصناعي .

اليهود :

اضطهاد اليهود في أوروبا لم يكن ظاهرة مستمرة ، فهي تقوم ، وتظهر وتغيب حسب موازين الحوادث . وبدأت مثلاً في عصر الصليبية الأولى ، وعادت بقسوة في سنوات وباء الطاعون الأسود . وكانت كل هذه المظاهر أكثر حدة في فرنسا وألمانيا ، وأقل بكثير في إيطاليا ، بل كان هذا البلد الكريم ملجأ لهم ، وخاصة بعد طردهم من أسبانيا الكاثوليكية (١٤٩٢) . ولأنهم بالحق كانوا يتمتعون بحماية البابوات . وهذه إحدى الشهادات الطيبة لهؤلاء الرؤساء الدينيين العظام . وإليك بعض أسمائهم : مارتينو الخامس ، أوجين الرابع ، بيوس الثاني ، يوليو الثاني ، ليون العاشر ، بولس الثالث ، يوليو الثالث ، سكست - كانت (أي الخامس) . كان أطباء كل هؤلاء البابوات من اليهود . والثقافة العبرية التي كانت مُجَهَّلة في

العصر الوسيط ، تحولت في القرن الخامس عشر إلى عنصر هام في الهيومانية . هذا إلى أن اليهود المتأصلين في التسليف بالضمان أدوا دوراً اقتصادياً هاماً . فحوالي عام ١٦٠٠ كانت البنوك ومكاتب التسليف اليهودية تبلغ ٥٠٠ ، والمتعاملون اليهود في التجارة ما بين الشرق والغرب كانت أكثر قواعدهم في فينسيا ، وفيرارا ، وأنكونا ، والقسطنطينية ، وكانوا في هذه سبعين تاجرًا ونيقياً . ومع كل هذا لم تلعب أية أسرة في غرب أوروبا من اليهود دوراً اقتصادياً يقارن بما قامت به أسرة المديتشي في إيطاليا ، وأسرة الفوجر Fugger في ألمانيا ، ثم جاء إنشاء « أكبات التقوى » (مون دي بيتيه) أو « القرض الحسن » ، من منتصف القرن الخامس عشر منافساً لمكاتب التسليف اليهودية ، وازداد هذا بتقادم الزمن ، وبدأ التدهور الاقتصادي للإسرائيليين يشتد بتنظيم ما عرف في الشرق باسم « حارة اليهود » . والكلمة المستعملة في اللغات الأوربية هي « جيتو » في روما ، وبولونيا ، وأنكونا وغيرها ، استجابة لمكتوب بابوي سنة ١٥٥٠ .

كريس (نقولا دي) :

ولد في بلدة « كريس » التابعة لمنطقة « تريف » بألمانيا . حصل على الدكتوراه في القانون الكنسي من جامعة بادوا . ورسم قساً ، وشارك في المجمع الديني بمدينة بازل (سويسرا) . حاول إقامة إتحاد للكنائس اليونانية واللاتينية ، ثم عين قاصداً رسولياً للبابا في ألمانيا وورني كريدنالا ، ووضع نظاماً للكنائس الألمانية ، ثم استدعاه البابا

إلى روما وعينه حاكمًا لها . وتوفى سنة ١٤٦٤ . وهو أول الهيومانيين
الجرمان باتساع معارفه العالمية . وحاول المصالحة بين الكنيسة اليونانية
وأتباع « هوس » في بلاد التشيك ، مع روما . كان فيلسوفًا وعلامة
مجددًا ، وله أفضال على كوبرنيقوس وجاليليو . وكان أول من قال
بأصالة الرياضيات في الفيزيقا . وكتابه « De docta ignorantia »
« سنة ١٤٤٠ يُعدُّ من أعلام المؤلفات في عصر « الإحياء » .

القبَلَانِيَّةُ أَوِ الْقَبَالَةُ (تعنى في العبرية : ما يقبل ، أو يستلم) :
حقيقتها تعنى تفسير بعض إصحاحات « العهد القديم » بطريقة
خفية باطنية . وهذه الأسفار كان لا يعرف بها سوى « القبَلَانِيَّين »
وهم الذين يفسرون هذه الكتب في معنى توجيهات الرب « ياهوفا »
إلى عباده . ويبدو أن في « القبالة » نوعًا من « الثيوزوفية » التي عرف
بها من قبل بعض المشاهير ، مثل فيلون السكندري ، وابن سينا ،
وباراسلس . وقد انتشرت في العصر الوسيط ، وخاصة في أوساط
يهود الأندلس . ولكنها هبطت عند مجموعات أقل إدراكًا ،
وعلمًا ، إلى ضروب من السحر الذي يمارسه العوام .

كاستليونى (بالداسارى) :

مؤلف كتاب « رجل البلاط » (الكورنيجيانو) ولد في « مانتواء »
١٤٧٨ ، وعاش في بلاط « أوربينو » وكان صديقًا لرافاييل في
روما ، وعضوًا في جماعة الهيومانيين حول البابا ليون العاشر . وبعد
وفاة زوجته ١٥٢٠ ترهب ، وعُين قاصدًا رسوليًا لكليان السابع ،

توفى بطليطلة ١٥٢٩ في العام التالى لِتَشْرَ كتابه الذى طبع عصره إذ كان المؤدب لأبناء الأعيان . ونَشَرَ فى إيطاليا والقرب الأورى القيم الحضارية : التربية والتعليم ، والآداب الاجتماعية . وزاد من احترام المرأة ، وكان معتنقاً الأفلاطونية الجديدة ، ورجلاً كاملاً ، وجندياً لامعاً ، ودبلوماسياً ، وفناناً .

كليمان السابع (يوليودى مدينشى) :

وُلِدَ فى فلورنسا ١٤٧٨ وانتخب بابا (١٥٢٣ - ١٥٣٤) وكان حليفاً لفرانسو الأول ، الملك الذى اهتم بحركة الرينسانس فأدخلها وأذاعها فى فرنسا . صداقته لفرانسوا جلبت عليه عدااء الإمبراطور شارل لكان الذى عاقبه باجتياح روما (١٥٢٧) ، فخرّبها وأخذ البابا أسيراً . وفى عام ١٥٣٣ رفض طلاق ملك إنجلترا هنرى الثامن من عقيلته كاترين داراجون . فأثار ثورة الملك على الكاثوليكية ، وكان ذلك بدء تحول إنجلترا إلى البروتستانتية .

الكوليدج :

كان استمرار الكولدجات فى عصر الإحياء ، وإن فاقت معاهد العصر الوسيط فى تحولات بالغة ، أهمها - نبعاً لطبيعة العصر الجديد - أنها تحولت من معاهد دينية إلى كليات فنية (بمعنى هيومانى) فازدحمت بالطلبة مما جعل هيئات التدريس تتخذ أوضاعاً جديدة . مع إدراك عميق لدورهم كتربويين .

الكيمياء :

كانت على الأغلب (ألكيمي) تبحث عن وسيلة لتحويل المعادن البخسة إلى ذهب ، تأسيساً على النظرية القديمة في العناصر الأربعة ، أو ما كان يعرف بمبادئ « باراسلز » الخمسة وبقيت على حالها مختصة بالكيفية أو النوعية . غير أن « باراسلز » اتكأ على التجارب واستخدم أدوية تداخلت فيها المعادن .

الكوكائى :

اصطلاح معروف عن مكان خيالى : هبة للفقراء ، يُطعمون منها حتى الشبع مثل تناقلة السلطان .

الكومندا :

شركة أعمال ظهرت في إيطاليا من القرن الثانى عشر . وعقود الكومندا تتألف من « الكومنتارى » الذى يقدم المال ، والتاجر الجوال بعقد لرحلة واحدة . وفى بعض الأحيان يكون التاجر صاحب سفينة ، فهو الذى يقدم المال .

كوبرنيقوس (نقولاً) :

ولد في بلدة « تورون » ببولندة (١٤٧٣) ابن تاجر ثرى . درم أولاً في كراكوفيا (١٤٧٦) وكانت أول مدينة أوربية ، هى ومدينة بولونيا بإيطاليا ، تدرس فيها الرياضيات (التى بدأت في كراكوفيا

(١٤٧٦) . وانتقل إلى بولونيا واستقر فيها ثلاث سنين ، قام بعدها لتدريس الرياضيات في روما ثم حصل على الدكتوراه في القانون من مدينة فيرارا ، وتابع الدراسة الطبية في ذلك الوقت (١٥٠٤) وعاد إلى بولنـدة حين اجتمعت لديه عناصر نظام الفلك ، وصبر حتى عام ١٥٤٣ - سنة وفاته - لينشر مؤلفه عن قبة السماء ، إهداء إلى البابا بولس الثالث .

الكتب الهرمية :

الكلمة تعني لغويًا : شيئًا مقفلاً بطريقة كاملة ، أو شيئًا صعب الفهم والوصول إلى معانية الخفية . ومعنى الوجه الهرماتيك أى الذى لا يفصح عن شيء ، وهرمس اسم علم يوصف بالـ (Trasmegiste أى العظمة المثلثة) وهو الاسم الإغريق للاله المصرى « توت » . والكتب الهرمية تؤرخ في القرن الثالث الميلادى فيما يطلق على مذكرات كتبت من محاضرات أونودوات سكندرية ، وهى تعبر عن أفلاطونية ممزوجة بالرواقية ، وكأنها تريد الإيضاح عن مذهب تحول به « هرمس » الآدمى إلى إله ، وتصنع ذلك في عبادته الخالصاء . « والكتب الهرمية » تعني شيئًا من هذا في الفلسفة . ثم أضيفت إليها كتب الأسحار « جمع سحر » « وفلك التنجيم » والإلكيمى « ويبدو أن الرينسانس اهتم بها . كما اهتم بالسحر والتنجيم (الإستروولوجيا) . وقد امتدح فشيـنو ويكوديلاميراندولا السحر مقاومًا به السحر الشيطاني المرفوض ، وفيها الدلالة على أن الكون وحدة حية ، والإنسان فيها

« ميكروكوزم ». والمعجب أن كل ذلك فتح الطريق أمام
ديكارت ، واكتشف حل المعادلة من الدرجة الثالثة .

ليوناردو دافنشى :

فنشى مسقط رأس ليوناردو ، بلدة على مقربة من فلورنسا ..
وُلد عام ١٤٥٢ وتوفي ١٥١٩ ، كان ابناً غير شرعى لمسجل عقود ،
تتلمذ على فيروكيو . ومن صوره « البشارة » (وموكب الملوك الماچ
(السحرة) يمجدون المسيح الطفل) . تمّ هذا فى فترة وجوده
بفلورنسا . أما السنوات من ١٤٨٢ حتى ١٤٩٩ ، فهى حقبة حياته
فى ميلانو . وفيها صور « العذراء والمسيح الطفل وسط الصخور »
و « العشاء الأخير » أو « الربانى » وعندما سقطت دوقية ميلانو ، عاد
إلى فلورنسا ، وحقق « الجوكندا » وصورتين « للهادونا » (سيدتنا
مريم) و « ياكوص » إله الخمر عند قدماء اليونان » و « ليدا » التى
عشقها زوس كبير الأرباب فدخل عليها فى صورة « بجمع » (تم) . ثم
يعود لفترة قصيرة إلى ميلانو ويغادرها إلى روما ، حيث قضى
سنتين ، ثم سافر إلى باريس ١٥١٥ ، وتوفى هناك بعد إقامة أربع
سنوات . وهو مبتدع « الأسقيوماتو » فى خلط الألوان ، والعارف
بتفاصيل التشريح فى الإنسان ، ومهندس ورسام بالقلم والريشة .
وفيلسوف ، وله كتاب عام عن التصوير (نشر ١٦٥١) .

لورنتسو الأفخم :

هو لوران المديتى المولود بفلورنسا ١٤٤٩ ، والمتوفى فى

ضاحيتهما كاريحي ١٤٩٢ . تولى الإمارة بعد وفاة أبيه ١٤٦٩ وتمرس
بالحكم شاباً غير موفق ، ولكنه منذ سقوط المتأمرين (الباتسي)
١٤٧٨ ، كان قد نضج إلى درجة أنه قدر على مقاومة البابا
سكستوس الرابع ، كما نجح في التضامن مع ملك نابولي ، ويعتبر
نموذج العقلاء في السياسة الإيطالية ، خاصة في توفيقه إلى بلوغ
السلام . كان لوران شاعراً وحامياً لأصحاب القلم . كُتِّباً وشعراء ،
كما كان حامياً للفنون وأهل الفن والفلسفة .

مازاتشيو (توماذودى سرچوفانى) :

مصور عبقري ، وُلد في سان چوفانى بوادى الأرنو (إقليم
أربزو) ١٤٠١ ، توفى في روما ١٤٢٨ . لم يتأثر بالمصورين ، وإنما
بالتحّاتين : جيروني ودوناتلو ، وخاصة «ياكوبوديلا كوارتشيا» .
عمل في روما ، وفي فلورنسا ، ولم يبق من أعماله إلا تسع فريسكات
و ١٠ لوحات في عمره القصير . وكان أثره في الفن واضحاً منتشرًا .
ولست أنسى تكرار زيارتي لكنيسة سانتا ماريا دل كارمينا لأتمتع
بمجموعة فريسكاته .

المجامع (الكوتسيل) :

عاش الشعب المسيحي بأوروبا الغربية والوسطى من القرن الرابع
عشر حتى منتصف السادس عشر . على أمل انعقاد مجمع كوفي
(أومسكوني) لتنظيم الكنيسة التي سارت على غير هدى وإن كانت
على أبواب تطور ، فتعلقت الآمال بهذه الفكرة حتى بعد إخفاق

مجمع «كونستانس» . وكان من رأى المصلح ساقونا رولا عقد مجمع عام . ووصل الحال بلويس الثانى عشر فى خلافه مع البابا بوليو الثانى إلى محاولة الحكم على البابا الشرس بواسطة مجمع يعقد فى بينزا (١٥١١ - ١٥١٢) فلم يحضره غير إكليروس بحابى فرنسا - وواجه البابا الموقف بعقد المجمع الخامس بقصر «اللاتران» ولم ينته إلا عام ١٥١٧ ، فى حكم البابا ليون العاشر . وكان الكثير من قراراته يتعلق بوضع حد لمساوى الكنيسة . وهذا المجمع هو الذى انتقل بقراراته فيما بعد إلى مجمع ترنتينو : أشهر كل هذه المجمع .

فى الوقت الذى قام مارتن لوثر فى قيتبرج ، وبحضور رجل قانون ، مسجل عقود ، ليعلن على المبدأ عام ١٥١٨ «استدعاء مجمع مسكونى حرا لعقده البابا ، بل يكون عقده بأمر من الإمبراطور . وإذا استعمل البابا سلطته ليمنع قيام المجمع الحر ، أو عارض فى إصلاح الكنيسة ، فإن من واجبا ألا نلتفت لا إلى شخصه ولا إلى سلطته » .

وفى هذا الذى يقترحه ليجتمع فى ألمانيا ، أن يكون لرجال الدين وحتى لغيرهم حق التصويت . ولن تؤخذ سوى قرارات متفقة مع نصوص الكتاب المقدس . ولم يقدر لهذا المجمع أن يعقد أبدا . ومات المصلح مارتن لوثر وهو يسطر رسالة هجاء عنيف ضد البابوية «المنشأة فى روما بواسطة الشيطان» . أما المجمع البابوى الذى بدأ انعقاده فى مدينة ترنتينو ، فى عام ١٥٥٢ حضره مندوب جرمانيا البروتستنتية ، ولكن الانفصال بين الكاثوليك والبروتستانت كان قد

تم . وعلى الرغم من نشاط أعضاء مجمع ترنتينو (١٥٤٥ - ١٥٦٣)
وسعيهم بكل شجاعة لإعادة بناء الكنيسة الكاثوليكية ، لم يكن
ممكناً تجنب الوقوع في معاداة البروتستانتية .

ميكلانجلو (بوناروتى) :

نحات ، مصور ، معمارى ، شاعر ، ولد ببلدة كابريز من أعمال
توسكانيا سنة ١٤٧٥ . وكانت حياته فى فلورنسا معادلة لامتداد
حياته فى روما حيث توفى سنة ١٥٦٤ . كانت الوحشة متغلبة على
طبعة فى صورة الانفراد والوحدة .

وفى هذا وصفه رفائيل بأنه يعيش منفرداً كالجلاد . والفريسكو
الذى يمثل عذاب يوم القيامة ، فى المضى الخاصة بالبأيا :
« الكايلامستينا » قرر ثلاث باباوات متتابعين تدميره بسبب عرى
المعذبين . وكل ناقد يفلسف انطباعه ، فمنهم من يقول : هذا
النحات الذى احتقر التصوير - فيما عدا الالافريسكا - ويعتبر
التصوير عبث أطفال ، لا يليق برجل . وكان فى فريسكاته نحائاً
بأقوى وأشهر ما يكون ، حتى فى مباشرة النحت ، وفى كل مرة يمسك
بالإزميل يقع فريسة لمعرفته الكاملة بتشريح العضلات . وهى ظاهرة
لا تفوت على من يشاهد تماثيله عن قرب . والعجيب أنه - على كثرة
ما ترك من أعمال النحت - لم يكمل منها إلا القليل . فى حين استطاع
أن يتم كل فريسكاته على سقف « الستينا » وعلى حيطانها . فأكمل
أعظم عمل زخرفى فى العالم . « لأن العلم والمعرفة يخدمانه . فهو قادر

على أن يستخرج من الجدران أى كتل يشاء تصويرها ، وبالحجم الذى يقصد ، كما أمكنه أن يخرج منها ما يشاء من إضاءة أو إظلام . (لمبلى فور) « فهو فى « السستينا » بلغ قمة الفن الكلاسيكى وتصويره تملك وساد فى عصر الباروك ، سابقاً فى ذلك أهله ، بما تنبض به حركة المعذبين فى الجحيم » (ثاستل) .

أشهر أعماله : تماثيل « البيتا » تمثل حنان الأم وحزنها على ما أصاب المسيح . وقد نحت أكثر من « البيتا » المشهورة فى كنيسة القديس بطرس . ثم تماثيل « دافيد » (النبي داود) فى فلورنسا ، وتماثيل « النبي موسى » فى واحدة من كنائس روما وتماثيله فى مقبرة المديتشى .

الموسيقى :

بلغ الفن الموسيقى أشده ، وضاعف من قدراته فى الرينسانس . حين ذاك خطت الموسيقى فى طريق لم يسبق حدوثه فى أية حضارة سالفة . فأصبحت فن تنظيم النغمات وتوفيقها ، وهى تتألف من خطوط لحنية تؤدى معاً بما فيها من كونتراپط وهارمونيا . ويوصف كل هذا إلى اليوم بالموسيقى البوليفونية ، أى متعددة الخطوط اللحنية .

وأكثرهم إيطاليون ، وفلمنكيون : يوهانس أوكجيم ، وجيوم ماشو وچوسكان ده بريه . وفى الموسيقى الدينية رولان ده لا سوس وفى أسبانيا : توماس لوييس دى ثكتوريا .

والأهم إبداع فن موسيقى جديد ، تشارك في أدائه الآلات المختلفة تعرف معاً من وترية ونحاسية وطبل ، وأوبوا ، وفلاوتات ، كما يشارك هذا الأوركسترا الجديدة في سناد قصة تمثل على المسرح بالقاء الفردى والكورالى . وعندما لا يتحمل بعض الكلام العادى فى نص القصة أن يعنى ، اخترع له نوع من التلاوة المنغمة تعرف بالريشيتاتيفو ، وقد بدأ بها التحول من البوليفونية إلى الميلوديا ، تصاحبها الآلات هارمونيا . تم ذلك فى خواتيم القرن السادس عشر ، والأغلب فى تاريخ الأوبرا أنها بدأت من عام ١٦٠٠ ومن عظمائها مونتفيردى .

المستيزم (وهو التصوف عند المسيحيين) :

بدأ ظهوره مع القرن الرابع عشر ، وواصل تقدمه فى فردية المتصوفة ومن عظمائها فى الرينسانس ميترابكارت ، وچان دافىلا ، وسانتا تريزا ده لاكروا ومارتين لوتر .

الملاحه :

رحلات الاستكشاف التى أثارها عصر الإحياء ، لا يمكن تصور قدراتها إلا بتطوير عمارة السفن ويصاحبها أو يتبعها رسم الخرائط ، واختراع الآلات المساعدة على الملاحة الاقياوسية . بحيث يتمكن الملاحون من تحديد مكانهم ، بتحديد خطوط الطول والعرض . دون أن ننسى أهمية آلات تحديد سرعة مسير السفن .

المسرح :

كان الريسانس العصر الذهبي للمسرح في أوروبا . والمقصود هنا هو المسرح بمعناه الحاضر عند كل الشعوب المتعدنة . فالمسرح في العصور الوسطى كان ظاهرة دينية وترفيهية . وهنا أصور تجربتي نتيجة لحضورى بمهرجان سالزبورج مرتين : الأول في شبلي ، والثانية في كهولتي .

أنت في هذه المدينة التي باركها عبقرى الموسيقى فولفجانج أماديوس موزار ، تشاهد وتسمع أنواع الإنتاج المسرحى في مختاراته ، وتسمع الموسيقى الدينية في الكنائس والموسيقى السمفونية في قاعاتها ، والغناء المسرحى باصطحاب الأوركسترا في الأوبرا .

ولكن سالزبورج في كل مهرجاناتها منذ مطلعها في عشرينات هذا القرن تحرص دائماً على عرض مسرحية واحدة (وهذا تجاوزاً أن نسميها بهذه الصفة) يتم إخراجها عاماً تلو عام دون تغيير في نصها . عنوانها بالألمانية « يديرمان » « إيفرمان » بالإنجليزية وهى حوار ومساجلات أخلاقية عميقة في معناها الدينى ، مع البساطة الساذجة . تقدم في مدرج مكشوف يلاصق أبواب كنيسة ، وفيها معنى التجرد كمخلوق من مخلوقات الرب ، ذات أثر عجيب على المشاهد . أيّا كانت ديانته .

وهذه الناحية في سالزبورج تمثل العصر الوسيط في أروع بيان .

وهى تابعة لما يعرف بالإنجليزية «ميراكل بليز» أو «موراليتى بليز» .

ومسرح الرينسانس ، أصوله المسرح الكلاسيكى الإغريقى ،
ونتاجه فى المسرح الرومانتىكى والرمزى والمعاصر . وهو ظاهرة
اجتماعية فنية فى كل زمان ، وتصوره فى عصر الإحياء يعنى ما جرى
عليه حين . ذلك من تطور هو الذى يعيش فيه الآن . حدث هذا فى
القرن الخامس عشر . وقد تحول من عملية أخلاقية دينية إلى علمانية
مؤكدة . فاهزل يختص بذاته مثل المأسى ، والممثلون يتحولون من
هواية إلى حرفة فنية متخصصة لعب فيها المؤلف الدور الأكبر ،
والمخرجون والممثلون دور التنفيذ وفى الكوميديا تظهر التشكيلات .
بطلاها « بوليشيل » (بليانشو) و« بنطلون » وتعرف باسم « كوميديا
ديلارنى » وهى صفة تَبْقَى منها أثر حتى عند المسرحى العظيم مولير .
وفى إنجلترا وأسبانيا تحتفظ بصفاتهما القومية . وشكبير هو الأعظم فى
هذا المجال مرآة لعصره تاريخياً ومأسوياً وكوميدياً ، وقد انتقل المسرح
من الفندق والمقهى إلى بناء متخصص ، ولم يعد مجرد تمثيل لغاية
ترفيهية ، ففيها التطهير بمعناه الأرفع ، وتتطلب ميزانية أغنى ،
وليست بحاجة إلى أمير أو ملك أو ثرى « ميسين » . والعجيب أنها
تحولت فى مصر تحولاً طبيعياً من أحمد الفار وأمثاله إلى الشيخ سلامة
حجازى - مسرح غنائى - وجورج أبيض - مسرح درامى . وحين
حاول أبيض تقديم مسرحية مصرية عصرية وظهر بردنجوت الباشا ،
والمرأة فى لباس مغنية أوراقتة يعشقها الباشا المحترم ، كان أبيض
مضحكاً فى جده ، لأننا لم نستطع أن نتقبل هذا التحول من رجل

في صورة أوديب الملك ، أولويس الحادى عشر أو الممثل « كين »
إلى باشا مصرى فى مطالع القرن ، علمًا بأن جورج أبيض كان ممثلًا
تراجيديًا من الطبقة الأولى ؛ على المستوى الأورى .

العثمانيون :

عقب سقوط إمبراطورية الأتراك السلجوقيين ، التى نشأت فى
الأناضول الأوسط (١٣٠٢) بدأت ما يعرف « بسلطنة الروم » على
يد عثمان الأول (١٢٨١ - ١٣٢٦) وعرفت الإمبراطورية باسمه .
وهر الذى حقق فتح البلقان (١٣٥٢ - ١٤٥٣) وامتلك سليمان
الأول غاليبولى (١٣٥٤) .

تصحيح هذه التواريخ : حوالى ١٢٩٩ تحرر عثمان من
السلجوقيين (١٣٢٦ - ١٣٥٩) . حكم أورخان الذى فتح بروصة
(١٣٢٦) وجعلها العاصمة وامتلك نقيًا وغاليبولى (١٣٥٩ -
١٣٨٩) مراد الأول فتح أدرنة ثم تراقيا ومقدونيا وبلغاريا . وأول
من عرف « بالسلطان » ووضع الأساس الإدارى للعثمانية (١٣٨٩ -
١٤٠٣) ، بايزيد الأول قهر الصليبيين فى نقوبوليس (١٣٩٦)
(مدينة بلغارية على الدانوب) . (١٣٩٦) انتصاره على المجريين
بقيادة سجموند والفرنسيين : (١٤٠٢) تيمورلنك يقضى على
إمبراطورية الأناضول (١٤١٣ - ١٤٢١) ويستردها السلطان محمد
الأول (١٤٢١ - ١٤٥١) ثم يعود إلى غزو أوربّا (١٤٥١ -
١٤٨١) . محمد الثانى (الفاتح) يهزم بيزنطة ويحتل عاصمتها
١٦٩

ويسمىها أسطنبول ، ويحتل الصرب والبوسنيا وألبانيا وشبه جزيرة
القرم إلخ (١٥١٢ - ١٥٢٠) . سليم الأول : يفتح الأناضول
الشرقي (١٥١٤) وسوريا (١٥١٦) ومصر (١٥١٧) .
(١٥٢٠ - ١٥٦٦) . قة مجد الإمبراطورية في سلطنة سليمان
القانوني . يحتل «موهاكس» مدينة بحرية على الدانوب
(١٥٢٦) - يغزو شمال إفريقيا - ويحاصر فيينا (١٥٢٩) -
(١٥٦٦ - ١٧٠٣) اثنا عشر سلطاناً ضعيفاً (١٦٩٩) معاهدة
كارلوفتز أول تراجع للعثمانيين . مفقد المجر .

فلورنسا (عاصمة إقليم توسكانيا) :

قدر عدد سكانها قبل «الطاعون الأسود» بعشرة ومائة ألف .
وبعد زواله بنحسين وستة وستين ألفاً عام ١٦٢٢ . وعلى الرغم من
هذا التناقص فإنها العاصمة الفكرية والفنية للرينسانس في مطالعه ،
والمركز الأول لحركة البنوك بأوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس
عشر ، والهيومانية فيها تتلون بكبرياء في أوائل القرن الخامس عشر
(عند الإيطاليين يسمى القرن برقه فهو «الكواتر وتشنتو») . ثم
تتحول الهيومانية إلى عصر فلسفي منسجم مع فينتشو (مارسيل) .
وعندما غادر المديتشي فلورنسا سنة ١٤٣٤ لم تعد الجمهورية إلى
الحياة فيما بين السنوات ١٤٩٤ حتى ١٥١٢ . ومن ١٥٢٧ حتى
١٥٣٠ ، إلا لئحى نهائياً . فقد أصبح آل المديتشي دوقات
توسكانيا . وفلورنسا وطن عدد هائل من عظماء الفنون : من
مازاتشيو ، وبرونلّسكي ، حتى ميكلائجلو . ومن كتاب عظام

(بزارك ، ودانتى ، وما كيا فيلى . وجيتشار دبنى) وتثرى بنبل آثارها وتوفيقها : الدومو (الكاتدرائية) وقصور أسرة ستروزي والمديتشى وييتى ، والتصوير « ألافيسكا » ، على جدران دير سان ماركو وفي مصلى الأسبانيول . وهى مدينة زهر « الليلك الأحمر » ، عاصمة الفنون والمال والأعمال . لقد كانت فلورنسا أهم مقر لحضارة أوربية فى طريق التجديد .

قالا (لورنزو) :

ولد عام ١٤٠٧ وتوفى ١٤٥٧ ، وهو واحد من مقيمى الهيومانزم . قدم هيومانية إيراسم ، وعاش فى نابولى سنة ١٤٣٧ ، ثم استقر فى روما حيث عينه البابا سكرتيراً رسولياً . كان ينكر فلسفة أرسطو ، وينقد توماس الإكوينى لإهماله اللغة اليونانية . وكان الطلبة فى القرن السادس عشر يدرسون بلاغة اللاتينية فى مؤلفاته ، وهو الذى صَحَحَ أخطاء « الفولجات » (الترجمة السبعينية للكتاب المقدس) وقالوا هو الذى أثبت زور الوثيقة التى قيل بأن الإمبراطور قسطنطين وهبها للبابا : لينقل إليه السلطة المدنية . ولقالا كتاب كبير باللاتينية (١٤٣٩) ينمى فيه على التمشف والزهد والتسك بصفته « بطولة » العصر الوسيط . هذا الرجل العظيم إذن هو من أهم من أقاموا الهيومانية بمعناها الإنسانى الكامل الصادق فى كل مكان وزمان .

فيروكيو (أندريا دى ميكيلى) :

من مواليد فلورنسا ١٤٣٥ - توفي بفينسيا ١٤٨٨ . قدراته الفنية المتعددة صورة أولى لليوناردو دا فنشى . كان مصورًا ، نحّاتًا ، صائغًا ، يعنى بأنواع الهندسة ، وبالموسيقى ، والعمارة ، بل بالفلسفة . كان فى النحت الباحث المفسر لتركيبات المواضيع التى عاجلها من قبله النحات العظيم دوناتيلوز من أعمال فيروكيو تمثل « دافيد » ، وتمثال الفارس الكوندوتيرى (قائد المرتزقة) « كولونى » « فقد شاء أن يصبح دوناتيلو الأكمل ، قوته فى عزيمته البت ، يعنى فى نخته البرنزى بالكتلة والنقل ، وملء الفراغ ، الباحث فى البروز والتفريغ عن حركة الضوء والظل (شاستيل الناقد الفنى الشهير فى عصرنا) قيمته التعليمية الكبرى فى عدد الفنانين العظام الذين عملوا بم رسمه ، ومن بينهم المصور بيروجينو ، ولورنزو كرىدى ، وعظيم العظماء ليوناردو دافينشى الذى تتلمذ عليه ، وكان مساعدًا له مدى أربعة عشر عامًا .

القسطنطينية :

كانت تنقسم اسطنبول إلى ثلاثة قطاعات وأرباض : القطاع الأول على القرن الذهبى . يحده سور ، وكانت جونة مستقر المدينة الإسلامية ، وبها عدد من المسيحيين (يونان وأرمن) ومن اليهود . أما على الشاطئ الشمالى فكانت « غلطة » ومن أرباضها « بيرا » وكانت قليلة السكان ، وغلطة كانت المدينة الأوربية . والقطاع الثالث هو اسكودار (سكوتارى) ، وامتدادها (كاديكوى) وهى

« خلقدونيا » على البر الأسوى لبوغاز البوسفور وبحر مرمرة .

امتدت أسوار القسطنطينية إلى ٢٠,٥ كيلو متراً ، وبعد نصف قرن من الفتح العثماني بلغ عدد سكانها ٢٥٠,٠٠٠ وارتفع العدد في مطلع القرن السابع عشر فكان تعدادها من ستمائة إلى سبعمائة ألف ، المسيحيون واليهود فيها بلغوا ٤٢ ٪ . وظلت عاصمة السلطنة ، طوال القرنين : السادس عشر والسابع عشر ، أكثر مدن أوروبا سكاناً .

روما :

سكانها في ختام القرن الخامس عشر بلغوا نحو ثلاثين ألفاً . وفي عام ١٦٠٠ وصلوا إلى مائة ألف ، ويمكن أن يصدقَ القول بأن ذروة مجد فلورنسا كان في القرن الخامس عشر - (الكوتروتشتو) وذروة مسجد روما - بل أجمادها - كان في القرن السادس عشر (تشينكويتشتو) .. فهي التي جذبت إليها أعظم فنانى إيطاليا (باستثناء احتفاظ فيتسيا بفنانها) بل فنانين من خارج إيطاليا . وفي خاتمة الريسانس كانت روما أجمل مدائن أوروبا يمكن تأمل قيادتها الروحية للعالم الكاثوليكي ، في القرن السادس عشر ، فهي مدينة نموذجية وأحد عناصر التحرك في الحضارة الأوربية .

شارل الثامن :

مجل لويس الحادى عشر ، ولد عام ١٤٧٠ بمدينة امبواز (فرنسا) ارتقى العرش ١٤٨٣ وظل فيه حتى وفاته عام ١٤٩٨ .

وعندما قرر إثبات حق فرنسا في مملكة نابولي اقتحم إيطاليا فاتحاً ،
سنة ١٤٩٤ ، استولى على فلورنسا وبلغ نابولي سنة ١٤٩٥ . وفي
العام ذاته اضطر للتقهقر والعودة إلى فرنسا بتهديد من حلف
البندقية ، كان عهده بدء الحروب داخل إيطاليا .

تشيلى (بنفوتو) :

ولد في فلورنسا (١٥٠٠) سافر إلى روما واشتغل بالصياغة ،
وانتهى أمره إلى هناك بتهمة القتل - نتيجة مبارزة - وأودع السجن
حتى أنقذه ملك فرنسا فرانسوا الأول باستدعائه إلى قصره (١٥٣٠ -
١٥٤٥) ومن أعماله هناك حفرية بارزة تصور (جنية الماء) . كان
موضعها حديقة قصر فونتلبو . ثم نقلت منه إلى متحف اللوفر
« وملاحته » المشهورة لفرانسوا الأول ، وهي موجودة الآن بمتحف
فينا . كان الفنانون يسخرون من تشيلى بوصفه نحّاتاً مبتدئاً . فحاول
أن يبرهن لهم على أنه مثال قادر على إبداع أعمال تذكر بدوناتلو
وميكيلانجلو وكان على حق في تمثاله « برسيوس » المقام في « لوجيا »
الحرس بفلورنسا فهذا المثال أعظم أعماله . وقرأت منذ أكثر من
ثلاثين سنة مذكرات تشيلى ، وما برحت حية تقرأ إلى اليوم . تصوير
كامل لحياته ومغامراته ، ولرجال ونساء عصر الرينسانس . توفى في
فلورنسا (١٥٧١) . [أعدت قراءتها سنة ١٩٨٢]

تربية الماشية :

تأخر إنتاج اللحوم واللبن في الغرب ، إبان عصر الرينسانس ،

ولكن تقدمت في الوقت ذاته تربية الخراف للغذاء في المراعى الرومانية ، وللصوف في إنجلترا . وأسبانيا .

التوابل :

لزومها للطعام والصيدلة أدخلها في النمو التجارى بين حاجة المغرب إلى المشرق . وقد أدى هذا النشاط إلى الإهتمام ببلوغ مصادر التوابل ذاتها بالسفر إليها ، وذلك أدى إلى تأصيل البرتغاليين ، ثم أهل الأراضى الواطئة في آسيا . وفى القرن السادس عشر تمهد المسلك التقليدى عن طريق الإسكندرية أو طرابلس الشام ، وعندما اتسعت الماريات تحول البرتغاليون في إتخاذ طريقهم إلى آسيا بالطواف حول أفريقيا . وتغلب نشاط أهل الأراضى الواطئة في القرن السابع عشر على نشاط البرتغال .

التسامح الدينى :

هو ميراث الهيومانزم : نقولا دى كويس ، وإيراسم ، وراييه ، والبروتستانت حاولوا إفهامنا أننا مخلوقات الرب نطيع أخلاقيات ديننا . والأديان واحدة أو متقاربة في الناحية غير العقائدية . لأنها تختص بالوحدة الأخلاقية في كل إنسان فاضل ، بصرف النظر عن مراسيم عبادته . ولم ينجح البروتستانت في هذا بسبب تعنت الكتلكة التي يتحكم في شؤونها قِيمٌ كبير ، وكانت الحروب الدينية نتيجة الخلافات العقائدية ، تتطلب من إنسان العصر التنديد بها .

تنظيم المدن (الأوربانزم) :

كانت مدن العصر الوسيط ضيقة خانقة . والرينسانس الذى درس الخرائب الرومانية و « الحنطة » الأفلاطونية للمدينة المثالية ، (الأوربانزم) وفكر المهندسون والفلاسفة ورجال الدولة وجهدوا فى بلوغ معنى المدينة ، وهل تكون كطاولة « الضأما » ؟ وكان رأى العسكريين والفلاسفة أنصار المدينة المستديرة حول مركز بارح يمثل وسطها فى اتساعه وزخرفة أبنيته ويسر الوصول إليه من كل مكان بأطراف المدينة .

ملحقات إضافية

پترارك أول الهيومانيين

أشرت في كتابي إلى زيارة لموضع في جنوب فرنسا (البروقانص) ، عاش فيه پترارك حقبة من حياته . ولقد عثرت في أوراق قديمة لي من عام ١٩٢٦ على ذكرىاتي من تلك الرحلة ، أستأذن في نقل بعض ما جاء فيها . يوصف پترارك في الفصل الخاص به بأول الهيومانيين ، وأضيف هنا أن آخرين اعتبروه أول رجل جديد . وكانت رحلتنا إلى البروقانص - أنا والمرحومة قرينتي - جعلت مركزها مدينة أفنيون ، نخرج عنها في رحلات تستغرق اليوم ونعود إليها في المساء . وفي واحدة من هذه الرحلات اتجهنا إلى بلدة تسمى « لایل - سور - سورج » ووصفها بالجزيرة (لايل) ، مرجعه خمسة فروع لنهر السورج تقطعها ، مما يكسب البلدة جالاً ولطفاً لثراء خضرتها ، ومسالكها المزينة بأشجار « اليلتان » ، وهو الدُّلب .

ينابيع فوكلوز :

ركن من أرض « الميدي » (الجنوب الفرنسي) زاره پترارك في صباه ، فصاح إذ رأى المنظر الساحر : « لو أني أعطيت حرية

الاختيار ، فسوف أراى مفضلا هذا المأوى الرقيق » .

ومضت الأعوام ، وغدا الصبي رجلا أوفد من فلورنسا برسالة إلى بابا أفينيون [فى سنوات الانشقاق البابوى الذى قضى بقيام بابا فى أفينيون ، وبابا فى روما] . وفى هذه المدينة ، ذات صباح يوم من أيام الأحد ، وفى كنيسة سانت كلير ، شاهد پترارك فتاة من النبلاء تصلى بخشوع . وكانت هذه الرؤية مثارا للإحساس شاعر إيطاليا الخالد بتباريع الهوى . أحب الفتاة المجهولة حبا معروفا عند أهل العصر الوسيط ، وهو الحب المتمزج بإحساس دينى ، هو أقرب المشاعر إلى العبادة . وپترارك رجل دين [قس] يؤكده أن يشعر بلهيب العشق الذى يمكن أن يهدد عذرية الحب ، فيتحول إلى رغبة أثيمة . فكان پترارك يهرب من الإحساس الحاطى ، فيكتم عاطفته صارخا : « واحسرتاه ! متى يمجى اليوم الذى أراى فيه ناجيا من هذه النوازع الحارة ، والعذاب المقيم ! » .

ثم حدث أن انتقلت الفتاة إلى الرفيق الأعلى ، فتحول الحب العذرى إلى تعبد صميم على أمل يوم اللقاء بين يدي الخالق سبحانه .

هذه هى قصة غرام الشاعر بالفتاة « لاورا » . تذكر كلمة صباه : « لو أننى أعطيت حرية اختيار إقامتى .. إلخ » . فصار پترارك إلى ينابيع فوكلوز ، يبت وجهه تلك الصخور ، ويفجر أشعاره كأنها مياه السورج خارجه من بطن الجبل .

كانت رحلتنا من أفينيون إلى فوكلوز تمتد إلى ثلاثين كيلو مترا ،

ليست شيئاً مذكوراً في مقابل حجيح إلى مأوى الشاعر ، مؤلف
الصوتيات والكازوفى إلى لاورا الحية ، ولاورا المتوفاة . وارتانيا أن
نقطع المسافة بالدراجات ، نتمتع بجمال الطريق ، ونشاهد المواضع
الهامة عليه .

ولنتجه الآن في طريقنا إلى البنايع التاريخية ، وقد حدث تغير في
طبيعة الأرض ، والمناظر المحيطة بها بعد خروجنا من آخر قرية في
طريقنا . وبدأ المسار في الارتفاع ، وانسط السهل من الجانبين تزيته
أشجار السرو والزيتون والدلب والخور ، ويواجهنا على البعد جبل
قانتوه ، يغطى الشجر سطحه فيما عدا بقاع تنعكس عليها أشعة
الشمس ، فتكسوها لوناً أبيض مشوباً بالصُّفرة تزايد كلما آذنت
الشمس بالمغيب .

وهكذا مرنا صعداً إلى بنايع فوكلوز ، حتى بلغنا ركنًا
للدراجتين . ودرجنا على الإقدام صعداً في طريق مخوف بأشجار
الزيتون .

وهذه البنايع هي منطلق نهر السورج ، أحد فروع نهر الرون .
مياه السورج تخرج من عيون بين فرجات الصخور ، في فوارات
متدفقة ، تجتمع لتكوّن المجرى الضيق الذى حاذيناه منذ مغادرتنا
لآخر قرية في طريقنا من أقيون .

ارتقينا إلى جوار البنايع ، مقودين بصوت المياه المتدفقة .
وقدمت لنا إحدى البائعات فرعين من أزهار اللواندة . وعلى شاطئ

النهر المقهى يحمل اسم بترارك ولاورا ، ويقال بأنه مقام في مكان
المتزل الذي عاش فيه الشاعر . وفوق المقهى لوحة عليها كتابة تقول
بأن الشاعر ألف في هذا الموضع صورتنا رقم ١٢٩ .

والآن بلغنا مجموعة من الصخور ينساب فوقها ، ومن حوالها
الماء مزيداً . فما أجمل زرقة الماء مختلطة ببياض الضوء ، كل ذلك
فوق حلقة من الصخور السوداء . بعضها لا تصل إليه المياه - فحى
في الصيف ، فصل الجفاف - تغطيها الطحالب في خضرة تشرج
القواد .

ما هي تلك العيون السحرية التي تروى وادياً بالماء ؟ وما هي تلك
الكهوف في بطن الجبل التي تمد نهرًا يروى وحده ٢١٦٥ هكتاراً من
الأرض حتى يبلغ نهر الرون ؟ وما هي تلك القوة التي تحرك تروس
١٦٠ معملاً منتشرة على شواطئ السورج ؟ .

إلى هنا جاء بترارك متجهاً بلاورا ، هارباً من بابوات أفنيون . إيه
ياينوب الحياة والشعر والتاريخ جئت إليك من بلاد نائية ، لم أعرف
عنك شيئاً ، ولم أسمع باسمك من قبل . إنها لواحدة من مصادفات
الحياة السعيدة قرنتي منك ! .

وإذا كان دانتى اليجيرى ، ابن العصر الوسيط أبعد من أن
يوصف بعامل في ظهور حركة « الأحياء » فإن بترارك يوصف حقاً
بأول الهيومانيين ، يمثل الإنسان الجديد لعصر جديد . أهم

الشخصيات في تاريخ الأدب الإيطالي الجديد ، فكاد حبه العذرى
للاورا مبعث خلود الاثنين .

وإذا كانت شهرته الأدبية مؤسسة على صوناته وكانزوناته مكتوبة
باللغة الإيطالية ، فإن مؤلفاته باللغة اللاتينية الفصحى هى التى
أذاعت شهرته فى حياته . على أن الرجل أهم فى ذاته وروحه ، وهى
التى تقربنا إلى عصرنا الحاضر فى صورة غرامه ، بل فى تفردته بنظرته
إلى حياته الداخلية . ويظهر ذلك فى رسائله الخاصة ، وفى
اعترافاته ، وفى سيرته الشخصية التى سماها « رسالته إلى الأعقاب » .
وفىها كانت عنايته بدخيلته ، ونمو إدراكه العقلانى أكثر من سرد
وقائع لا علاقة لها إلا بخارجه ، لا بروحه .

أرسل إلى صديق عزيز رسالة يقول فيها - وكان قد بلغ الواحد
بعد الثلاثين من عمره - بأنه صعد وشقيقه إلى قمة جبل قانتوه ،
وشاهد من ذلك المرتفع ، السحاب والجبال والبحر . وفكر فى البعد
الحقيق لبلاده . وإذا به يخرج من جيبه كتاب « اعترافات القديس
أغوستين » . فتح الكتاب دون هدف ، وطالع ما طلع له فى
« البخت » : « يذهب الناس للإعجاب بمرتفعات الجبال ، واندفاع
آذى البحر فى عنفها العاصف ، واتساع الأنهار ، وامتداد
الأفيانوس ، وحركة النجوم ، وينسون أنفسهم » . أقفل الكتاب ،
وغضب من اعتنايه بالأرضيات ، فى حين كان الفلاسفة الوثنيون
أنفسهم يعلمونه معنى الروح وقيمتها ، وعظمتها ، وهو معترف بتطلعه
إلى المجد ، فهذا إحساس جديد نشأ مع الرينسانس » ، ولم يك

معهودًا في العصر الوسيط . أما من ناحية وسوداوية الحزن ، وناار
العشق فهذا في رأينا من أحاسيس القرن التاسع عشر ، تحليله لها
يمكن أن يبيى به شاب من هذا القرن الأخير .

حظى بترارك بأقصى درجات المجد في حياته ، وفي كل عام يوم
عيد الميلاد كان يفد عليه . وفد من أساتذة جامعة بادوا ، وطلبتها ،
حاملين الشموع الموقدة ، وناافخين في الصور .

وأسمى مراتب التبجيل حدث في استقباله بالكابيتول الرومانى في
أبريل عام ١٣٤١ وتيارت جامعة باريس ، وبلدية روما في تتريج
الشاعر على قصائده اللاتينية .

ارتقى بترارك مبنى الكابيتول ، وسط هتاف الجماهير . وتوجه عضو
الشيوخ عن مدينة روما ، بفروع الغار . وتوجه الشاعر المتوج من
الكابيتول إلى كنيسة القديس بطرس (القاتيكان) حيث وضع تاج
الغار تذكارًا مقدسًا

تمودجان من الكاتزونييري

من أول يوم في رحيل
سيدتي . أحاطها الملائكة
المختارون . والأرواح الهائنة التي
تسكن السماء . بالإعجاب
وبالعاطفة القدسية .

ما هذا الضياء ، وما هذا
الحسن الجديد ؟ تحدثوا به فيما
بينهم على مدى الزمان ، عن
مخلوق بهذا الجمال ، ارتفع من
هذه الدنيا الضائعة إلى المقر
الأعلى .

إنها لسعيدة بتغيير مسكنها ،
شاعرة بمستواها الأكمل .
ولكنها تلتفت من آونة
لأخرى ، وكأنها تنتظر .

وأنا أرفع إلى السماء كل
شوق وتوق ، وكل أفكارى ،
إذ أنصت إليها تتوسل إلى بأن
أغذ السير ، وأوسع الحطى
[لألحق بها] .

حينما أشرف من هذه الآجام
الوحشية على هذا السهل
المنبسط ، حيث ولدت تلك
التي ملكت قوادي في عفوانه ،
وزهرة شبابه ، أفعم الجور
بآهاتي .

ارتفعت إلى السماء وتركتني
برحيلها المفاجئ . اتفقدتها عبثاً
في ذلك البعد ، فأنصَحُ
بدموعي كل ما حولي .

يس في الوادي من
عشب ، ولا في الآجام من
صخر ، ليس من عسلوج ،
ولا من ورق أخضر في هذه
السهول ، ولا من أزاهير .
ولا من حشائش في هذه
الأصقاع ، وليس في هذه
الينابيع من نقطة ماء ، ولا في
هذا الغاب من حيوان ،
لا يعرف فداحة الألم الذي حل
بي في فقدك ، يا حبيبتي .

بوكاتشيو

يصغر بترارك بسنوات قليلة ، ويزامله في نشأة الهيرومانية ، وكان على اتصال دائم بزميله الأكبر ، يتبادلان الرسائل . وكانت له عشيقة باسم « فياميتا » أسعدته خمسة عشر عامًا .

لم يتميز بشعره ، فقد كان ناثرًا بليغًا . وما فتىء كتابه باللغة الإيطالية مقروءا إلى اليوم في العالم المتمدن . وله مؤلفات باللغة اللاتينية منها كتاب عن أرباب اليونان وأساطيرهم ، وكتاب عن شهيرات النساء ، يبدأ بأَم البشر حواء ، وينتهي بجَنّا ملكة نابولي : واحد وسبعون سيدة من العصر الكلاسيكي ، وسبع سيدات من العصر الوسيط .

واخترت لك واحدة من حكايات كتابه الأشهر « الديكاميون » ، قصة قصيرة اتخذها المؤلف الدرامي الألماني « ليسنج » Lessing موضوعًا لمسرحية بعنوان « ناتان الحكيم » .

الأفصوصة الثالثة

« الديكاميرون »

بقلم

جبرفاني بوكاتشيو

ثلاثة خواتم وثلاث ديانات

كان صلاح الدين الأيوبي رجلاً عظيماً ، فائق الشجاعة ، ارتفع بكفاءته إلى سلطنة مصر.. وحقق انتصارات لامعة على الصليبيين . وكلفته حروبه مالا كثيراً ، بالإضافة إلى سماحته وكرمه . فأقفر بيت المال في وقت احتياجه عاجلاً لمبلغ كبير . فتذكر يهودياً ثرياً يعيش في الإسكندرية ، اسمه ملكي صيدق ، يقرض ذوى الحاجة مقابل فوائد فاحشة . وارتأى صلاح الدين الاستعانة به للخروج من المأزق . وكان اليهودي بخيلاً بوقته ، وعماله .

السلطان لا يريد العنف في مطالبته بقرض ، والمرأى لن يتخلى بيسر عن أمواله . فلجأ صلاح الدين إلى وسيلة تحقق مرامه ، وهي استدعاؤه إلى « بابلون » عاصمة مصر في ذلك الوقت .

استقبل ملكي صيدق في القصر ، وأجلسه إلى جانبه في بشاشة ، وقال له : « إن أشخاصاً كثيرين ياملكي تحدثوا إلى عن حكمتك ، وعلمك ، وخاصة في اللاهوت . وعندى لك سؤال أرجو أن نجيبني عنه : ما رأيك في الأديان الثلاثة ، أيها المفضل والصحيح ؟ أهو

العبرية أم الإسلام . أم المسيحية ؟ .

أدرك اليهودى صنو الحذر والحكمة ، أن السلطان ينصب له شركاً ، وأنه لو تقدم بتفضيل واحد منها ، فغنى ذلك أنه أخرق . فلم ينفد إترانه ، وبحضور ذهن عجيب ، قال للسلطان :

سؤالك يا مولاي ، وقد تفضلت وطلبت الإجابة عنه ، يجمع بين الحسن والأهمية . ولكى أجيبك ، يا مولاي ، استسمحك بادئ ذى بدء ، بسررد حكاية صغيرة :

« تنهى إلى خبر عن رجل من بلد لا أعرفه ، وهو أنه من الأثرياء ، وذوى المقام ، يحتفظ ضمن جواهره بخاتم غاية فى الجمال ، ولا يقدر بمال ، فسمى إلى وسيلة الاحتفاظ بهذا الكثر النادر ، بتوريثه إلى واحد من أولاده ، ليقى تذكراً له بعد وفاته . فوضع فى وصيته أن من يجد الخاتم فى أجزائه ، يغدو وريثى الوحيد . ويتعين عليه أن يحتفظ به ليقى فى الأسرة ، وأن يكون لوريثه من يجمده ضمن أجزائه ، ليصنع به مثلاً صنعت .

وبهذا تابعت الوصايا فى أحفاده بنفس الإجراء . حتى جاء حفيد أخلف ثلاثة أولاد ، تميزوا كلهم بالعطف والفضائل ، والنباهة ، وحسن الملامح ، والطاعة للوالدين . فكان حب الأب لهم بمساوات كاملة . فاضطر أن يعد كل منهم - على حدة ! - بأحقية فى الخاتم الأوحد . وتقدم به العمر ، وهو فى حيرة مما يصنع لإرضائهم حتى انتهى به العطف إلى وسيلة لاثاني لها :

ذهب إلى «جواهرجي» اشترى بفضه ، وطلب منه أن يصنع خاتمين صورة طبق الأصل للخاتم الأول . وأجاد الصائغ الفنان في صنعه ، إلى درجة أن الأب الشيخ لم يستطع التمييز بين الأصل والمحاكاة .

بعد وفاة الأب ، بدأ الخلاف بين الأشقاء . فكل منهم يرى أن الإرث من حقه لتكون له الرياسة على شقيقه . وانتهى بهم الأمر إلى عرض الخواتم الثلاثة على خبير . ففقط بأنهما متساوية ، ولا تمييز بينها . فهي إذن قضية لا تنتهي إلى نتيجة .. » .

وكذا الأمر بامولاي في شرائع الرب التي أنزلها على شعوبه الثلاثة ، كل واحد منها يعتبر شعبه مالكاً شريعة الحق : يعمل بسنتها وفرائضها ، ومن المحال أن نعرف أى الثلاثة على حق فيما يؤمن به . والشأن في سؤال عظمة السلطان يظل معلقاً دون قرار . ويبدو لي أنه باق على هذا المتوال ، إلى ما شاء الرب سبحانه .

وتبين لصلاح الدين في هذه الإجابة أن اليهودي تخلّص بلباقة من الفخ الذي نُصب له . وأدرك السلطان أن لاجدوى من إعداد فخ آخر . ولم يجد مناصاً من الانفتاح بمطالبه دون مواربة . أبلغه بحاجة بيت المال .. إلى المال ، فهو يطالبه بسلفة هامة .. وقد أفهمه في الوقت ذاته بما كان في قدرته أن يصنع معه لو أن إجابته على استفهامه جاءت أقل حكمة .

وتملك الكرم ذات اليهودي . فأقرض السلطان كافة ما طلبه منه . وقدر السلطان موقف ملكي صديق حق قدره أو شكره على

صنيعه . ولم يكف فيما بعد بوفاء الدين ، بل أغدق على اليهودى بالهدايا ، واحتفظ به أميناً جديراً بمكانته ، بل شرفه دائماً بصداقته .

• • •

هذه الحكاية ، تأليف بوكاتشيو Pocaccio صديق الشاعر
بترارك Pitrank هى التى أشير إليها لتضاف إلى مكارم صلاح
الدين يوسف بطل أبطال الحرب الصليبية فى الأرض المقدسة ، فهو
الذى أعاد بيت المقدس إلى أهله .

ومثلها ما صنعه مع الصليبي البريطانى قلب الأسد . عندما أوفد
إليه فى مرضه طبيبه الخاص ، الذى تولى علاجه . ومثلها مجرد قبوله
بالصلح مع أعدائه .

قارن هذا بما قاله البابا مؤنباً للإمبراطور فريديريك الثانى من أسرة
الهوهشتاوفن عندما أجرى الصلح مع المسلمين فى الأرض المقدسة :
« الصليبي سافر للحرب ، لا ليعقد سلاماً » .